أ.د. حلمي محمد القاعود

حضرت التبعية.. وغابت الهوية

[قراءة في الأدب والفن والثقافة]

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ = ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

استهـــلال

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده،

وبعد..

فإن قضية "الهوية" فى عالمنا المعاصر؛ تشكل مرتكزاً لحركة الشعوب نحو غاياتها الإنسانية والقومية. وقد انبعثت القوميات والوطنيات والطائفيات والعرقيات فى عصرنا على أساس من البحث عن "هوية" مما أدى إلى ابتلاع أراض وأوطان ودول بقوة السلاح أو قوة التمرد!

والأمة الإسلامية على امتدادها العريض تعرضت إلى محنة التمزيق، وكان الضحية الأولى فى هذه المحنة هو "الإسلام"، الرابط الأقوى لشعوب الأمة وأوطانها.. وقد انعكس ذلك على الثقافة الإسلامية، التى عانت من التشويش والتهميش، وغابت عن "النص الأدبى" العربى المعاصر، أو بدت خافتة إلى حد كبير، فضلاً عن محاولات فجة وصارخة لتنحية التصور الإسلامى عن الحقل الثقافى؛ ووصمه بالظلام والتخلف والرجعية وغير ذلك من صفات تعبر عن الانسحاق فى أتون الثقافات المعادية والتلظى بنارها وشواظها..

وإذا كانت الهوية الإسلامية بما تملكه من رحابة إنسانية، تسع ثقافات العالم كله، أعنى الجوانب المضيئة لهذه الثقافات، ولديها الوعى المرهف لهضم العناصر المفيدة والتفاعل معها، فإن الدعوة للإلحاح على هويتنا الإسلامية وجلائها وإبرازها، تصير هدفاً أساسياً فى كل

العصـور، وخاصـة فـى عصـرنا المـزدحم بـالزيف والأكاذيـب والخـداع والعدوان.

سطور هذا الكتاب تدافع عن الهوية الإسلامية بصورة وأخرى، من خلال قراءة بعض الأحداث والنصوص، والوقائع والقضايا، وما يدور فـى الحقل الأدبى الثقافى من سلوكيات وممارسات.

والغاية فى كل الأحوال التنبيه إلى الإيجابيات والسلبيات فـى صراع الهويـة الإسـلامية أدبـاً ولغـة ومنـهجـاً، مـع عناصـر الإذابـة والإقصـاء والإلغاء والاستئصال.

وأسـأل الله أن يوفـق أمتنـا ومثقفيهـا إلـى مـا فيـه الخيـر والتوفيـق والسداد. وهو سبحانـه المستعان،،،

د. حلمى محمد القاعود

حضرت التبعية.. وغابت الهوية!

أقامت وزارة الثقافة المصرية من خلال المجلس الأعلى للثقافة مؤتمراً بعنوان "خصوصية الرواية العربية"، بدأت أعماله فى دار الأوبرا المصرية يوم الثانى والعشرين من فبراير ١٩٩٨ وانتهت يوم السادس والعشرين منه.. ونوقشت أبحاث المؤتمر فى مكتبة القاهرة الكبرى من خلال جلسات متتابعة على مدى أيام المؤتمر صباحاً ومساء. وفى آخر الجلسات أعلن عن الفائز بجائزة الرواية على مستوى العالم العربى وقدرها خسمون ألف جنيه مصرى!

حضر المؤتمر عدد كبير من الباحثين والروائيين العرب والأجانب، وبلغ عددهم نحو مائة ضيف، بالإضافة إلى عدد أكبر من الأدباء والكتاب المصريين.. وقد لوحظ أن تنظيم المؤتمر كان جيداً فى معظمه، واتسمت الجلسات بالموضوعية إلى حد كبير فى الإطار الذى وضع لها.

ولا ريب أن الاحتكاك بين هذا العدد الضخم من الأدباء والباحثين يحقق غايات مختلفة تصب فى خدمة الثقافة والفكر، وتضىء جوانب شتى من الآراء والتصورات، فضلاً عن دعم الجانب الإنسانى فى مجال العلاقات الشخصية والأدبية.

ومع أن المؤتمر وضع فى عنوانه صفة الخصوصية، فإن معظم الضيوف كانوا من أنصار التبعية، وأكثر معرفة بالغرب، وانتماء لثقافته وتصوراته.. صحيح أن هنالك فروقاً واتجاهات متباينة بينهم، ولكنها بصفة عامة تعد فروقاً ضئيلة، لأنها داخل دائرة واحدة وسياق واحد. وظهر من خلال المناقشة فى بعض الجلسات أن الكثيرين لا يلقون بالاً لمسألة الخصوصية، ولا يعترفون بما يسمى الهوية، والذين تحدثوا عن

الخصوصية تناولوها فى إطار أيديولوجيات غريبة، وبعيدة عن روح الأمة.

لقد غابت عن المؤتمر عناصر مهمة تمثل تيارات أخرى، سواء فى مجال الأشخاص أو مجال الأبحاث.. قلة قليلة تخالف التيار العام وُجِدَتْ داخل أروقة المؤتمر، بل إن ممثلى المرأة من الكاتبات لم توجد بينهن واحدة تمثل التيار المعتدل.. كلهن "راديكاليات" متطرفات فى عدائهن للمكونات الحضارية والثقافية للأمة، ومن أنصار التبعية بصورة مطلقة.

أما الأبحاث، فقد وضح من عناوين معظمها ومضامينها، سيولة المصطلحات، وسيولة اللغة، لدرجة يشعر معها المتابع أن القوم يترجمون عن غيرهم، ترجمة ركيكة ضعيفة. لا تعبر عن هوية أمتنا وشخصيتها تعبيراً حقيقياً.

ومن المؤسف أن معظم الأبحاث دارت حول عدد محدود من الروائيين والروايات، مع أن كتاب الرواية كثيرون بامتداد العالم العربى فى مختلف الأجيال والاتجاهات.

وقد بدأ التركيز على بعض الروايات فى أكثر من بحث، لأن أصحاب هذه الروايات يهيمنون على منابر نشر، أو بيدهم بعض مفاتيح الحركة الثقافية.. بالطبع، فإن ذلك فى معظمه يرجع إلى أحادية التيار المهيمن على المؤتمر، وغياب التيارات الأخرى غياباً شبه كامل.

حول عنوان المؤتمر انعقدت ثلاث جلسات، الأولى والثانية عن خصوصية الرواية العربية، والبحث عن خصوصية. أما الثالثة فكانت عن الرواية العربية وسؤال الهوية، وكان من أبحاثها: "فى روائية الدلالة" و"هل يمكن بناء نظرية للرواية العربية؟" و"هل هناك خصوصية للرواية العربية" و"سؤال الهوية على تخوم العالم العربى".. وقد طرحت

الأبحاث فى هذا الإطار تساؤلات أكثر مما طرحت من إجابات، ويدا البعض متحاملاً على ما يسمى بالنص الدينى (الإسلامى طبعاً)، ومبشراً بما يسمى "النص التنويرى" (أى التغريبى). يقول أحدهم فى ملخص بحثه:

"شكل النص الدينى المرجع الأساس للثقافة العربية التقليدية، ينكر ما لا يأتلف معه، ويجعل أجناس المعرفة المحتملة مشتقات تابعة له ومؤكدة لدوره. وقد أعاقت هذه الهيمنة تطور أجناس المعرفة كعلوم مستقلة بذاتها، كما لو كان النص الدينى هو الشخصية العلمية المتفردة وبقية النصوص الأخرى مجرد ظلال لا شخصيات لها ولا تاريخ....".

وواضح أن هذه الرؤية- وأمثالها- تشكل نمطاً سائداً فى كثير من دراسات المؤتمر التى طرحت فى محاوره الأخرى، وتتعامل مع ما تسميه "النص الدينى" باستعلاء كريه فى أفضل الحالات، إن لم يكن عداء صريحاً. كما جاء فى بحث آخر حول رواية "شموس الفجر" لمؤلفها حيدر حيدر (روائى سورى)؛ فقد كان عنوان البحث: التحول من العلمانية إلى الدينية(؟)، وأشار كاتب البحث إلى أن الرواية تحلل ظاهرة غريبة (؟) فى الفكر والفن العربيين وهى ظاهرة التحول إلى الدين (؟).

إن بطل الرواية "بدرنبهان" مناضل يسارى (!) يسجن بسبب نشاطه الماركسى. يعذب ويطلق سراحه بعد أشهر من المسجونية. لقد ربى أولاده تربية حرة منفتحة (!) وبعد عودته من السجن تلاحظ ابنته- خريجة كلية علم النفس- التى كانت تحب شاباً فلسطينياً مناضلاً ونازحاً إلى قبرص، أن أعراضاً غريبة ألمت بأبيها، وتكتشف شيئاً فشيئاً أن أباها عاد إلى الدين والتقاليد الموروثة، فسلم ابنه (الذكر) مقاليد السلطة فى البيت، وصار الأب يكثر من الشعائر والعبادات، فتغير بذلك

نمط حياة الأسرة. ويرصد الباحث ما يسميه ظاهرة التحول النكوصى (؟) إلى الدين عند بطل الرواية، ومفاتيح لغة المتحول إلى الدين، والمتخيل الدينى والسرد.

وواضح أن الباحث- ومثله كثيرون- يعتقد أن النضال لا يكون إلا من خلال الماركسية أو بعيداً عن الدين، وأن الدين أو اعتماد الدين منهجاً حياتياً هو نكوص وارتداد عن الطريق السوى. وأن الإحالات الدينية العامة والخاصة والمتخيل الدينى، كلها تمثل ظاهرة غريبة فى الفكر والفن العربيين!

ولا ريب أن مثل هذه النوعية من الأبحاث تصادر هوية الأمة أولاً، وتزور الواقع وتزيفه ثانياً، لأن معظم المناضلين الحقيقيين، إن لم يكن كلهم، قد خرجوا من عباءة الإسلام وحده، ولأن صاحب الرواية سورى، وكاتب البحث يبدو فلسطينياً؛ فإن مناضلى فلسطين بدءاً من عز الدين القسام حتى أحمد ياسين حتى الجيل الذى سيولد، خرجوا من المساجد ومن عباءة الإسلام.. الدنيا كلها تعرف ذلك.. واليساريون يعلمونه جيداً.. والأعداء يحفظون؛ قبل الجميع؛ أن التهديد الحقيقى لهم، هو عودة الإسلام الذى يسميه الباحث- ربما خجلاً منه- بالدين (مجهلاً دون توصيف)!

لقد تنوعت محاور المؤتمر وتعددت. ومع أن بعض الأبحاث كان يحاول أن يؤصل للرواية العربية بطريقة موضوعية، إلا إن "الهوية" غابت فى خضم الانبهار الساذج بالآخر، والسقوط فى شباكه المحكمة.

كانت هنالك جلسات تحمل العناوين الآتية: توجه الرواية العربية- نقض المركزية الروائية- الرواية العربية من منظور عالمى- الرواية والتراث- الرواية العربية فى تجلياتها المحلية- رواية التحديث والحداثة- الرواية النسائية- النص الروائى والمسكوت عنه- جماليات

التلقى فى الرواية- السيرة الذاتية ورواية السيرة الذاتية- المتخيل السياسى والاجتماعى- الرواية والتاريخ- رواية الغربة والعلاقة بالآخر- رواية الصحراء- رواية السجن.

ويحسب للمؤتمر أنه أتاح الفرصة- ربما لأول مرة- للتعريف ببعض الكتابات الروائية فى "موريتانيا" الشقيقة من خلال بعض الأبحاث التى نوقشت فى المؤتمر.

وقد غاب عن المؤتمر، والمؤتمرات الثقافية العربية عموماً، تمثيل الصومال وجيبوتى، فمع أن الدولتين عربيتين إسلاميتين ومن أعضاء الجامعة العربية، فإننا لا نعلم عن أدبهما ولا أدبائهما شيئاً.. لماذا؟ ولا تسل عن "جزر القمر"، وثقافتها وأهلها!!

خصص المؤتمر جلسات أخرى مسائية لعرض شهادات كتاب الرواية، وقد أدلى عدد كبير منهم بشهاداته التى انصرفت غالباً إلى المكونات الثقافية، والرؤية الفكرية والفنية، والشهادات فى معظمها مناقضة للهوية، ومتناغمة مع التبعية، والحضور القومى غائب.

أيضاً هنالك جلسات صباحية خصصها المؤتمر تحت عنوان "المائدة المستديرة" للحديث عن بعض القضايا حديثاً تلقائياً عفوياً، وانعقدت هذه الجلسات تحت عناوين؛ الرواية العربية: قضايا النشأة والتكوين الواقعية وبدائلها. الرواية والتاريخ. رواية المرأة. الرواية العربية مترجمة.

وقد أثارت المرأة فى المؤتمر ضجيجاً وصخباً عاليين سواء فى الأبحاث التى طرحت حول رواية المرأة، أو الآراء التى طرحتها بعض المشاركات، وأنكرن فيه خصوصية المرأة، فضلاً عن دعاوى فجة ومتطرفة لقيت استهجاناً من الجميع.

وفى الجلسة الختامية أعلن عن فوز الكاتب "عبدالرحمن منيف" بجائزة الرواية العربية، وعبدالرحمن منيف، كاتب خليجى يسارى، سحبت منه جنسيته بسبب انتمائه الفكرى، ويعيش فى المنفى منذ سنوات طويلة، وله العديد من الروايات، منها: الأشجار واغتيال مرزوق، وشرق المتوسط، والنهايات، وهو من الناحية الفنية كاتب جيد، يملك قدرة واضحة على رصد التفاصيل ووصف المكان والأحداث والشخوص، فى لغة متماسكة فصيحة، وقد طغت رؤيته الخاصة على تفسير الواقع الصحراوى وعلاقاته وتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيه. وقد بدا فى المؤتمر أكثر اتزاناً من رفاقه الروائيين، بل إن تصريحاته فى الصحف جاءت معتدلة فى الموضوعات التى تناولها، وقد أشار إلى أن الأيدولوجيا لم يعد لها المكانة السابقة فى تفكيره، وأنه يتجه إلى التراث الشعبى أو روح الشعب، ويلاحظ أن قيمة الجائزة التى حصل عليها تقدر بخمسين ألف جنيه مصرى، وهى عشرة أضعاف جائزة الدولة التقديرية التى تمنحها الحكومة المصرية لكبار الأدباء تتويجاً لتاريخهم الأدبى! (تضاعفت قيمة هذه الجوائز جميعاً فيما بعد المؤتمر!).

وبعد..

فقد أثار المؤتمر عاصفة من الاهتمام والتفكير والنشاط، ومع أن تنظيمه كان جيداً، فقد خلف إحساساً بأن الهوية غابت، بعد أن حضرت التبعية بشكل مكثف وكبير! والسؤال: من المسئول عن ذلك؟ الواقع الثقافى أم آباء الهوية وأبناؤها؟

وظيفة الشعر فى عصور الضعف

منذ فترة السبعينيات فى القرن الماضى، بدأت تظهر حركات شعرية عربية، تتجاهل الواقع الإنسانى للمجتمع العربى والإسلامى، وتحصر نفسها فى دائرة الذات والغموض، وتتخلى فى الوقت نفسه عن التقاليد

الأدبيـة والفنيـة التـى ورثهـا الأدبـاء والشـعراء علـى مـدى قـرون طويلـة. وكان المسوغ عند أصحاب هذه الحركات هو ضرورة التغيير والتطوير والتجديد..

الحركات الشعرية الجديدة وضعت سدوداً بينها وبين قضايا الأمة وآلامها وأحلامها أو آمالها، وصارت بعض النماذج تشبه الألغاز والفوازير التى لا يفقه منها القارئ المثقف- فضلاً عن القارئ العادى- معنى أو مضموناً، ولا يجد فيها موسيقى الشعر أو إيقاعه الذى تعودت عليه الأذن العربية. ثم هناك من هذه الحركات من واصل الإيغال فى مصادمة الوجدان والعقل فى المجتمع العربى، فركز على الموضوعات التى تعبر عن الشبق الجنسى، مصحوبة بالتجديف وازدراء الخالق سبحانه والعقيدة بأسرها، وصار هناك ما يعرف بشعر "الجسد"، وكان تفسير دعاته لهذا الاتجاه الشاذ، بأن الشاعر لم يعد يملك غير جسده فى جو يحاصره فيه المجتمع المادى بقمعه وطغيانه وعلاقاته غير الإنسانية!!

ولا ريب أن هذه الحركات الشعرية الجديدة، كانت صدى لحركات مماثلة ظهرت فى الغرب، وكانت نتيجة أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية حقيقية هناك. فالمجتمعات الغربية عانت من حروب كثيرة مهلكة ومدمرة، خاصة فى الحربين العالميتين الأولى، والثانية، فضلاً عن سيادة النمط المادى الشرس الذى أسقط قيم المودة والرحمة والتعاطف الإنسانى، مع سقوط القيم الروحية أو التخلى عنها فى هذه المجتمعات، بحيث صارت العقائد الدينية هناك مجرد طقوس وشعائر مظهرية، لا تصل إلى أعماق الضمائر والقلوب.

وبإيجاز شديد، فإن الحركات الشعرية الجديدة فى المجتمع العربى كانت تمثيلاً مشوها لما عرف بنظرية الفن للفن، وأفرزت نماذج غريبة وعشوائية بعيدة عن الفن والمجتمع جميعاً، ومع ذلك وجدت من يروج لها ويدافع عنها، بدعوى التجديد والحداثة تارة، ودعوى مقاومة التخلف والجمود تارة أخرى، وكانت هنالك دعوى تتحدث عن مقاومة الأصولية والظلامية بكسر "التابوهات" أو المحرمات، من خلال تلك النماذج الجديدة التى تتكئ على الغموض والذاتية، وتحطيم اللغة أو تفجيرها، وضرب عرض الحائط بالتقاليد الأدبية والأسس الفنية..

فى كل الأحوال، فإن أصحاب هذا التوجه على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، اتفقوا على شىء واحد، هو تجاهل قضايا الأمة القومية والاجتماعية والسياسية وغيرها، فى الوقت الذى كان فيه الأدباء والشعراء الصهاينة، يوظفون الفن بكل أشكاله وألوانه بدءاً من الشعر والقصة حتى السينما والمسرح والرسم لخدمة الصهيونية وأهدافها وغاياتها، وتصوير اليهودى فى حالات انتصاره وتفوقه، وكفاحه وصموده، واضطهاده وعذابه، فى صورة "السوبرمان" الذى يحقد عليه البشر الأغيار الذين هم أقل منه منزلة ومكانة!

بدأ الناس فى مجتمعاتنا العربية يفقدون ثقتهم بما يطالعون من أدب، ومن شعر لا يعبر عنهم ولا يروقهم، وكأن ضعف هذه المجتمعات يرافقه ضعف الفنون أيضاً، وسمعنا من يصيح أن عصر الشعر قد انتهى، وأن عصر النثر قد بدأ: قصيدة النثر- الرواية- المسرح- ... .

ولكن الأحداث التى جرت فى فلسطين طوال الفترة الماضية؛ أكدت وظيفة الشعر مرة أخرى، وأثبتت أن عصر الشعر لم ينته بعد، وأن الشاعر الموهوب الذى يلتقى مع نبض الأمة ومشاعرها يستطيع بحق

أن يحرك القلوب والأفئدة، وأن يجذب الانتباه لتتفاعل الأمة فى الاتجاه الذى يوقظها وينهضها ويدفعها إلى السير فى الاتجاه الصحيح.

كتب الشاعر السعودى "غازى القصيبى" قصيدة بعنوان "الشهداء" يرثى فيها الاستشهادية "آيات الأخرس" التى فجرت نفسها فى ٢٠٠٢/٣/٢٩ فى مجموعة من المستعمرين الصهاينة فى فلسطين المحتلة، فقتلت بعضهم وجرحت البعض الآخر. القصيدة كانت تعبيراً مباشراً عن مشاعر الأمة وأحاسيسها تجاه الفتاة الاستشهادية، وتجاه الواقع المأساوى فى فلسطين المحتلة، وتجاه الواقع العربى المتردى الملىء بالهوان والمذلة. تجاوب الناس مع القصيدة وكلماتها فى كل مكان وصلت إليه، بل إنها أثرت فى صفوف الصهاينة الذين شنوا حملة ضارية عبر الصحف والتلفزة والشبكة الإليكترونية، ضد الشاعر الذى كان عميداً للسفراء فى العاصمة البريطانية لندن، وسفيراً للملكة العربية السعودية، مما أدى إلى مغادرته موقعه وتعيينه وزيراً للمياه فى الرياض.

وظيفة الشعر اجتماعية قبل أن تكون فنية، ولن تتحقق هذه الوظيفة إلا إذا كان الشاعر موهوباً بحق يملك أسس الفن، والقدرة على التعبير، وهو ما يتفق مع مفهوم الأدب الإسلامى فى تحقيق المعادلة بين الغاية الإنسانية والمتعة الفنية، ولعل هذا ما يفسر ذيوع قصيدة "الشهداء" وتأثيرها على الجانبين العربى والصهيونى. لنتأمل مطلع القصيدة الذى يمجد الاستشهاد:

يشهد الله أنكم شهداء   يشهد الأنبياء والأولياء

متم كى تعز كلمة ربى   فى ربوع أعزها الإسراء

انتحـرتم؟ نحـن الـذين انتحرنـا بحيـاة أمواتهـا الأحيـاء!

مقاطع القصيدة هجاء للعجز العربى والصمت العربى والذل العربى، وإشادة ببطولة الاستشهاديين، وبشارة لهم بما ينتظرهم فى الجنان التى تفتح أبوابها لهم:

قل لآيات.. يا عروس العوالى كـل حسـن لمقلتيـك الفـداء

حـين يُخْصـى الفحـول.. صـفوة قـومى.. تتصـدى للمجـرم الحسـناء

فتحـت بابهـا الجنـان.. وحيـت.. وتلقـت فـاطم الزهـراء..

إن قصيدة صادقة نابعة من إحساس حقيقى يكتبها شاعر موهوب كفيلة بتحريك الدماء فى شرايين جسم مجمد، وبث روح الجهاد والأمل فـى أوصـاله.. وهـو مـا يعنـى سـقوط الحركـات الشـعرية التـى توظـف الغموض وتنأى عن المجتمع وقضاياه.

* * * *

استلهام التراث الإسلامى فى شعر العتبانى

هذا شاعر واعد بلا ريب. فهو يملك الأدوات الفنية الأساسية ويجتهد لتثبيت قدميه فى مجال الإنشاء الشعرى الجميل. والشاعر "طاهر العتبانى" من الشعراء الجادين الذين تشغلهم قضايا الأمة، وهمومها، ويسعى إلى معالجتها شعرياً من خلال تصور إسلامى صاف، وفن أدبى متفتح يستفيد بالمعطيات الفنية المختلفة؛ فى تقديم رؤيته الشعرية، دون أن تجرفه التيارات الخبيثة، أو تضلله الدعاوى المنحرفة، فهو صادق مع نفسه، ومع رؤيته فى تبنى التصور الإسلامى، مع أن التصور قد يبدو نشازاً فى الساحة الأدبية التى غرقت فى دوامات التغريب والغموض والاستلاب الفكرى والروحى..

أصدر "طاهر العتبانى" ديوانين أحدهما فى مصر بعنوان: الجواد المهاجر، والآخر: الطريق إلى روما، وصدر فى المغرب، وللأسف لم أطلع عليهما، كما فازت إحدى قصائده (كنت دليلى طفلين)؛ بجائزة القسم العربى فى هيئة الإذاعة البريطانية BBC، وفاز أيضاً بجائزة حول: دراسة عن الشاعر "غازى القصيبى" فى مسابقة أقامها أحد الأندية الأدبية بالمملكة العربية السعودية.

وبين يدى ديوانه الجديد "جسد الرؤيا.. والروح"، الذى صدر عن دار الوفاء بالمنصورة (مصر)، يقدم من خلاله رصداً شعرياً لمأساة العراق تحت الغزو، ويرحل فى أغوار الذات بحثاً عن الأمل أو تحقيق الحلم الذى ينتظره بالنسبة لشعوب الأمة كلها.

وفى هذا الديوان نكتشف بعض الخصائص الأساسية التى تميز قصائده، وأولها استلهام التراث الإسلامى والعربى وتوظيفه فى معالجة قضايا الأمة الراهنة، ويليها تأثره واقتباسه لعدد من الشعراء المعاصرين

المشهورين من أمثال: أحمد مطر وأمل دنقل، ثم نلاحظ حرصه على الموسيقى الشعرية، والتزامه بالقافية فى قصائده جميعاً، حتى فيما يبدو شعراً تفعيلياً.

ولعل أبرز مجالات استلهام التراث الإسلامى العربى، تظهر فى القسم الثانى من الديوان الذى سماه الروح، حيث استلهم سورة "يوسف"-عليه السلام-، ليعالج من خلالها واقعه الإنسانى الاجتماعى بصورة تقوم على التوازى بين ما ورد فى السورة، وهو قصة "يوسف"-عليه السلام- مع إخوته وحزن أبيه من أجله، فنرى عدداً من القصائد التى تبدو منفصلة، وإن كانت فى حقيقة الأمر متصلة برباط ما، ولكنه من خلال استدعاء آية كريمة فى السورة ذات دلالة على موقف، نستطيع أن نطالع على ضوئها الموقف الشعرى الذى يقدمه أو يرصده.

فى القصيدة الثالثة من هذا القسم (الروح) وهى بعنوان "الوصية" يصدرها بالآية الكريمة: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً﴾. (يوسف: ٥)؛ ثم ينطلق لتمجيد الصمت والاحتفاظ بالسر وعدم البوح به، حتى يتم تنفيذ العمل المأمول، لأن الواقع ملىء بالأشواك والحقد والكراهية والسموم والقبح.. ويجب الحذر فى كل الأحوال حتى يتحدث العمل عن نفسه، ويصير أمراً واقعاً:

"لا تقصص رؤياك.. ودع تأويل الرؤيا.. يفصح عما أدركت/ أشجار البستان ستنمو- وستقطف من ثمر الرؤيا.. ما كنت غرست/ لا تقصص رؤياك.. احذرهم- وانزع عن قلبك دهشته.. واسكب فى روحك.. ما أولت" ١٠٦- ١٠٧.

ويلاحظ أن الشاعر فى استلهاماته للتراث بصفة عامة، أو فى رصده للواقع المباشر، يحرص دائماً على أن يترك مساحة للأمل،

ومجالاً لمستقبل أفضل، فى الوقت الذى لجأ فيه معظم الشعراء المعاصرين إلى مصادرة تلك المساحة وهذا المجال لحساب النظرة التشاؤمية القائمة. وهى ميزة تحسب لطاهر العتبانى فى كل الأحوال. ففى القصيدة الثانية عشرة من القسم الثانى أيضاً، وعنوانها "أفراح الروح"- وهو العنوان ذاته الذى وضعه "سيد قطب"- رحمه الله- على رأس مقال له، يصدر القصيدة بالآية الكريمة المتفائلة: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. (يوسف ٩٤)، وفى بعض مقاطعها يطالعنا بالتفاؤل صريحاً وقاطعاً: ".. لا نملك إلا أن نتضوأ... من همسات الروح... فتهب على دنيانا الرؤيا وتفوح/ كلمات القلب المجروح/ لا نملك غير البشرى... أصداء يمتلئ القلب بها/ نغدو فى بهجتها ونروح/ ونسافر فيها... نحو جنان الفرجة.../ نحو يقين يملكنا... فنصيح/ يهدينا.. فى ليل الحسرة... فنبوح...." ١٧٦.

وإذا كانت سورة يوسف قد هيمنت بمعطياتها الغنية والثرية على معظم قصائد الديوان التى تعالج ما سماه الشاعر "الروح"، فإن الشعر القديم والمعاصر، أعطيا مدداً ملحوظاً للبناء الشعرى فى القسم الأول من الديوان، وها هو فى قصيدته التى يعالج فيها سقوط بغداد، يستدعى الشاعر الجاهلى امرأ القيس من خلال معلقته الشهيرة: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل/ بسقط اللوى بين الدخول فحومل" ليبكى على بغداد التى سقطت تحت سنابك الغزاة، وضاع مجدها وشرفها وتاريخها وعبقها الحضارى العظيم بحكم تقصير أهلها ومن يعنيهم أمرها، فى داخلها وخارجها، ويتخذ لذلك قافية "القاف" المرفوعة التى تذكرنا بقافية شوقى فى قصيدته الشهيرة "دمشق" ومطلعها: سلام من صبا أرق/ ودمع لا

يكفكف يا دمشق"، وهو- أى شاعرنا- حريص فى كل الأحوال على الإيقاع الموسيقى من خلال القافية؛ يقول مخاطباً بغداد:

"قفى نبك يا بغداد ضحية مجدنا/ وأحلامنا اللاتى بوجهك تشنق/ قفى نبك يا بغداد سيرة أمة/ يهيم بعينيها المساء ويأرق/ ففى كل شبر من ربوع ديارها/ عدو لئيم أو دخيل منمق/ وفى كل شبر من ربوع ديارها/ بغى كذوب أو شعوب تصفق/ قفى نبك.. لو أن البكاء لجرحنا شفاء، لما غامت علينا الحقائق/ ولو أن ليل الخوف يطلع صبحه/ لما أرق الشاكون، فالليل مطبق..." ٨٣.

لقد رصد الشاعر مأساة بغداد على امتداد القسم الأول من ديوانه، رابطاً بين الماضى والحاضر، من خلال الأحداث والوقائع المتناظرة فى القديم والحديث، مما يسير إلى وعيه التاريخى الحادّ بأحداث الماضى المشابهة، ووقائعه الموازية (تأمل مثلاً إشارته إلى "أم القصر" التى انتزعها خالد بن الوليد من الفرس عند فتح العراق، والكمين الذى صنعه للفرس فى مدينة "الولجة")، وهو يهدف من ورائها إلى إحياء روح الأمل ومواجهة الشدائد عند الأمة، مهما كان الواقع محبطاً وقاتماً.

إن طاهر العتبانى من الشعراء المنتمين للأمة من خلال رؤيته الناضجة وأدواته النامية.

* * * *

قيمة اللغة من قيمة أهلها!

الغضب من أجل اللغة العربية ضرورى ومشروع، وهو فى جانب منه يعبر عن التمسك بالحياة والرغبة فى التقدم، والأمل فى الاستقلال والتميز.. مواجهة الغضب والاستهانة أو الاتهامات المرسلة من قبيل الجمود والرجعية والتخلف مسألة غير مقبولة، ولا تعبر عن إدراك حقيقى للمحنة التى تعيشها الأمة أو تعيشها اللغة.

الغضب من أجل اللغة غضب نبيل ورائع، لأنه يعنى أن الأمة لم تسقط بعد تحت سنابك الغزاة، أو تفقد إرادتها بفعل الضغوط العاتية التى تأتيها من كل مكان..

لغتنا العربية ليست فريدة فى التعرض للضغط والمحنة، هناك لغات كثيرة تعرضت لما تعرضت له اللغة العربية، ونهضت حين نهض أهلها وتفوقوا وعرفوا الإرادة القوية التى لا تقهر!

سأشير فى إيجاز شديد إلى بعض أمثلة تثبت أن اللغة ترقى برقى أهلها وقوتهم، وتهبط بل تندحر وتتلاشى بتهاون أهلها وتفريطهم واستسلامهم لإرادة الآخرين.

نشأت اللغة العبرية قبل أربعة آلاف عام، وعاشت مع قيام بعض الكيانات اليهودية التى عاشت بضعة عقود، وعندما انهارت أخذت العبرية تتلاشى حتى صارت معرفتها قاصرة على بعض علماء الدين اليهودى، يستخدمونها فى الصلوات والجنائز، وفى الشتات تحدث اليهود لغات العالم أجمع إلا العبرية، وظل الأمر كذلك، حتى قام الكيان اليهودى الغاصب فى فلسطين، فصارت لغة رسمية يُرْغَم جميع اليهود الغزاة فى فلسطين على التحدث بها، فضلاً عن كونها قد صارت لغة ثقافة وعلم وسياسة، أى لغة متداولة بصورة أساسية فى المدارس

والمعاهد والجامعات والصحافة والأدب والفكر والمؤسسات العامة والخاصة؛ وصار أهل البلاد الأصليون من الفلسطينيين يتعاملون بها وإلا حرموا العلم والعمل، والوجود أيضاً!

فى اليابان وبعد الهزيمة الساحقة فى الحرب العالمية الثانية، اجتمع المجلس القومى للتعليم هناك، ليقرر مصير اللغة اليابانية، بعد أن تعالت أصوات تطالب بإحلال الإنجليزية مكانها، وكان هناك اتجاه آخر يهدف إلى تخفيض عدد المفردات التى يتم تكليف الطلاب بحفظها ودراستها حتى المرحلة الثانوية، لأن نظام اللغة اليابانية يقوم على المفردات والألفاظ.. كان الطالب مكلفاً بحفظ ثلاثة آلاف مفردة ودراستها، وظل المجلس القومى للتعليم منعقداً فى جلسات ممتدة يواجه الداعين إلى تخفيض عدد المفردات، وإلغاء اليابانية وإحلال الإنجليزية مكانها، وانتصر التيار القومى الذى أصر على زيادة مفردات اليابانية فى المقرر الدراسى حتى الثانوية العامة إلى خمسة آلاف مفردة. ومع الإرادة اليابانية الجبارة التى تعمل فى دأب وصبر وصمت، قويت اليابانية بقوة أهلها، وصار لها أقسام فى معظم جامعات العالم المتقدمة وبعض الجامعات العربية.

حين تكون قوياً فإن العالم يستمع إليك ويصغى باحترام، ولو كنت ظالماً، ويتدبر لغتك أياً كانت لهجتها، أو صعوبتها. وحين تكون ضعيفاً فلا أحد يصغى إليك أو يسمع. ولو كانت لغتك مقدسة! هذا هو القانون الذى يفرضه واقع الصراع الدولى أو واقع الحياة!

وهناك دول تسعى إلى التعبير عن قوتها ووجودها الدولى من خلال لغتها وثقافتها عموماً. فرنسا أبرز الأمثلة فى هذا السياق. لقد أنشأت منظمة دولية– الفرانكفونية– تقوم على أساس الانتماء للغة

الفرنسية، وتحقق من خلالها أهدافاً سياسية واقتصادية وحضارية.. ولك أن تعلم مدى ما تعلقه فرنسا على سفاراتها فى الخارج من آمال؛ لترسيخ الوجود اللغوى الفرنسى فى كل مجال ممكن سواء فى المدارس أو الجامعات أو المؤسسات العلمية والثقافية. إن السفير الفرنسى فى أية عاصمة أجنبية لا يستنكف أن يقوم مع طاقم سفارته بزيارة الأقسام الفرنسية فى كليات الآداب مثلاً، ويتقابل مع أعضاء هيئة التدريس والطلاب، ويتدارس معهم صعوبات تدريس اللغة الفرنسية وعناصر تيسيرها للطلاب والباحثين، وما أكثر ما تقدمه فرنسا من منح وبعثات لدراسة لغتها وثقافتها، وما تهيئه من ندوات ومعسكرات ترفيهية ورحلات صيفية إلى باريس وشواطئ فرنسا لدعم اللغة الفرنسية تنظيراً وتطبيقاً، ناهيك عن الحرص الشعبى والرسمى على استخدام الفرنسية فى المحادثات والحوارات مع الأجانب.

قوة اللغة من قوة الناطقين بها، وقيمتها من قيمة أهلها، ولعل توجه المستعمرات الإفريقية والآسيوية إلى استدعاء لغاتها المحلية والمسميات الوطنية بديلاً للغات المستعمر ومسمياته يمثل تعبيراً قوياً عن السعى الحثيث للاستقلال والتميز وصناعة هوية خاصة..

ومن ثم، فإن التفريط فى اللغة العربية لحساب لغة أخرى أو لهجة أخرى ليس أمراً هيناً، أو عملاً بسيطاً، أو دعوة إلى التقدم. إنه تنازل سهل ورخيص عن معتقد وهوية ووطن. التقدم لا يأتى عن طريق تضييع اللغة، واللغة لا تقف حائلاً دون التقدم. اليهود تقدموا مع أنهم بعثوا لغة قديمة مطمورة فى أعماق التاريخ منذ أربعة آلاف عام. واليابانيون يبهرون العالم بتقدمهم العلمى والثقافى من خلال لغتهم

الصعبة، وتسير على الطريق ذاته دول جنوب شرقى آسيا وتايلاند والهند مع أن لغاتها محدودة إقليمياً.

إن تطوير اللغة يأتى عبر الحركة الاجتماعية واندفاعها إلى الأمام، حيث تغتنى بالمزيد من المصطلحات وتنفض التراب عن كثير من مصطلحاتها ومفرداتها، ولعل تجربة اللغة العربية فى العصر الحديث خير شاهد على التطوير إلى الأفضل والأجود والأحسن. فقد وصلت مع نهايات المرحلة العثمانية إلى الركاكة والضعف والجفاف والجمود بسبب تراجع حركة المجتمع وسيادة الجهل والتخلف، ولكن بداية النهضة وما أعقبها من حضور قوى للتعليم والطباعة والصحافة ونشر التراث والبعثات إلى الخارج، خلق أجيالاً تعيد إلى اللغة بهاءها ورونقها فحسب، بل وتقدمها فى أجمل صور الصياغة والتعبير، و"مدرسة البيان" فى القرن العشرين كانت نتاجاً رائعاً من أجمل ما عرفته العربية على امتداد أربعة عشر قرناً من الزمان.

إن اللغة العربية تحتاج إلى إرادة النهوض القومى فى كافة المجالات، وفى مقدمتها التعليم والإعلام والثقافة.. يومها ستنهض اللغة العربية تلقائياً، وتفارق صورة اليتيم على مأدبة اللئيم!

* * * *

من أجل اللغة، ينهض الناس من مقاعدهم

كان مؤتمراً اقتصادياً، ولكنه تحول إلى منافسة بين رئيسين وقوتين ولغتين.

الرئيسان ينتميان إلى ثقافة بشرية واحدة، ورابطة سياسية واحدة، ومستوى حضارى واحد.. ولكنهما يختلفان فى اللغة.! وكان الظن أن مسألة اللغة بالنسبة لهما لا تمثل أية حساسية أو مشكلة، وأثبتت الأحداث والوقائع أن اللغة هى كل شىء، وأنها رمز لانتصار أحدهما على الآخر أو تفوقه، بل علامة على تماسك أعصابه وقدرته على التحمل..

فبينما كان القادة الأوربيون- كما تقول جريدة الأهرام فى ٢٠٠٦/٣/٢٥م- منهمكين فى قضايا الطاقة وتدفق الاستثمارات عبر الحدود فى قمتهم فى بروكسل قبل يومين، استشاط الرئيس الفرنسى "جاك شيراك" غيظاً عندما وقف "أرنست أنطوان سبليير، الرئيس الفرنسى لاتحاد رجال الأعمال الأوربيين متحدثاً باللغة الإنجليزية، معتبراً أنها لغة رجال الأعمال!

حينذاك قال الرئيس شيراك: إنه استمع بما فيه الكفاية إلى الإنجليزية، وانسحب من القاعة وصحب معه "تيرى بريتون" وزير المالية الفرنسية، و"فيليب دوست بلازى" وزير الخارجية، ولم يعودوا إلى القاعة إلا بعد أن انتهى سبليير من إلقاء كلمته. وقد ارتسمت على وجه "تونى بلير" رئيس الوزراء البريطانى ابتسامة سخرية، وقال: الناس تنهض من مقاعدها وتغادر المكان لأسباب مختلفة.

ومن حق بلير أن يبتسم ساخراً، لأن لغته الإنجليزية صاحبة السيادة فى أرجاء العالم، وليس فى مؤتمر بروكسل فقط، فهى اللغة

الأولى فى عالم الاتصالات وخاصة الشبكة العنكبوتية (النت)، وهى لغة المؤتمرات والندوات والعلوم والثقافة والموانى والمطارات، وهى اللغة الوسيطة بين لغات العالم الأخرى..

وإذا كان شيراك قد أغضبه أو غاظه أن يستخدم رئيس اتحاد رجال الأعمال الفرنسيين اللغة الإنجليزية، وينهض من مقعده ومعه وزيران فرنسيان، ولا يعودون إلى قاعة المؤتمر إلا بعد أن ينتهى رئيس الاتحاد من إلقاء كلمته، فهو غضب مشروع أو غيظ مشروع، لأن الرئيس الفرنسى والمسئولين الفرنسيين بل الشعب الفرنسى كله خاصة حريص على لغته داخل فرنسا، وخارجها، ومع أن فرنسا خرجت طوعاً أو كرهاً من مستعمراتها فى أرجاء العالم إلا أنها تركت لغتها هناك، وحاربت من أجل إبقائها بالمغريات والمعونات والمنح الدراسية، وخصصت لمن يتكلمون الفرنسية أو يتعلمونها أو يدرسون آدابها من غير الفرنسيين مكانة كبيرة، وامتيازاً خاصاً، تعبر عنه وسائل عديدة، منها الدعوات المجانية لزيارة فرنسا، والمعسكرات الصيفية الترفيهية التى تقام على حسابها للطلاب المتفوقين فى دراستها على شواطئ دولهم.. فضلاً عن قيام سفراء فرنسا فى شتى عواصم العالم بمتابعة مستوى تعليم الفرنسية فى البلاد التى تستضيفهم، وصار أمراً عادياً أن تجد السفير الفرنسى وطاقم السفارة الفرنسية فى عاصمة ما، يقومون بزيارة أقسام اللغة الفرنسية فى الجامعات التى تنتمى إلى هذه العاصمة، ولا يجدون حرجاً فى ذلك، بل يرونه صميم عملهم الدبلوماسى ومقدمة مهمتهم السياسية.

إن غيظ الرئيس الفرنسى بسبب التحدث بلغة غير لغة بلاده مفهوم ومقدر، ففرنسا الاستعمارية التى تركت المستعمرات، ترى أن "الفرنسية"

أقوى من هذه المستعمرات وأبقى، ولذلك خلقت منظمة الفرانكوفونية لتكون تجمعاً موازياً لمنظمة الكومنولث البريطانى، وإذا كان من الممكن أن يتفكك هذا الأخير، فإن "الفرانكفونية" تصعب على التفكك، لأن اللغة تصنع رباطاً روحياً أو ثقافياً بين أعضائها، يشدهم إلى بعضهم البعض، وإذا عرفنا أن قنوات تلفزيونية فرنسية عديدة تخصص أوقاتاً طويلة للحديث عن الفرانكفون، وخاصة الأفارقة، تناولاً لواقعهم، وبحثاً فى مشكلاتهم، وتعريفاً بهم، واستضافة لأعلامهم فى شتى المجالات؛ أدركنا أهمية حرص فرنسا على لغتها..

ونذكر أن فرنسا اعترضت على اتفاقية التجارة الدولية، ووقفت ضد الولايات المتحدة من أجل اللغة الفرنسية ومنتجاتها الثقافية..

إن فرنسا لا تذيع فى إعلامها وصحفها مادة بغير اللغة الفرنسية، بل إن معظم الأفلام والمسلسلات الأجنبية تذاع "مدبلجة"، أى تنطق شخصيات العمل الدرامى باللغة الفرنسية.. والذين سافروا إلى باريس يؤكدون أن سائق التاكسى لا يستجيب لمن يتكلم بغير الفرنسية، حتى لو كان يعرف اللغة..

إن شيراك وبلير من أبناء قارة واحدة وثقافة واحدة وحضارة واحدة وسياسة واحدة وقوة واحدة، ولكن كلاً منهما حريص على لغة وطنه الأم، وعلى تفوقها، وعلى التخاطب بها، ولم يكن غريباً أن يحتج الرئيس الفرنسى على واحد من مواطنيه رفض الإلقاء بلغته الأم، وأن تبدو السعادة على وجه رئيس الوزراء الإنجليزى لدرجة السخرية ممن غادروا أماكنهم احتجاجاً على المتحدث بالإنجليزية.. فهى لغته، وهى رمز تفوق بريطانى!

هذا الاعتزاز باللغة الفرنسية عند شيراك، وباللغة الإنجليزية عند بلير، ماذا يقابله عندنا نحن العرب؟

انظر مثلاً إلى معظم محطات التلفزة الأرضية والفضائية، وتأمل هذا الكم الهائل من المتحدثين والمذيعين والمذيعات الذين يهدرون قيمة اللغة العربية نطقاً وتعبيراً، حديثاً وتركيباً، ثم تأمل هذا الإصرار العجيب من جانب بعض هؤلاء على خلط حديثه بكم هائل من المفردات الأجنبية (وخاصة ممن يسمونهم أهل الفن)، بل إن بعض القنوات، تخجل من كتابة اسمها باللغة العربية، وتكتبه بالحروف اللاتينية، ولا تفسير لهذا إلا أن بعض العرب يستشعر الدونية تجاه نفسه وتجاه لغته وتجاه الآخر!

لقد أعلنت إذاعة البرنامج العام فى القاهرة أن هذا العام هو عام اللغة العربية. وهى مبادرة تستحق الشكر والتقدير. ولكن ما دلالة أن تعلن إذاعة عربية فى وطن عربى فى أمة عربية أن هذا العام هو عام اللغة العربية؟

الدلالة واسعة وعميقة، وهى تشير فى مجملها إلى أن حال اللغة العربية فى المدرسة والجامعة والشارع والصحف والإذاعة والتلفزة ووسائل المواصلات والموانى والمطارات والبنوك والمحلات التجارية والمؤسسات الإدارية، هبطت إلى حال من البؤس غير مسبوق، من حيث الصياغة أو التداخل مع لغات أخرى أجنبية، أو الإزاحة حيث تحل الإنجليزية محلها!

ومهما يكن من أمر، فإن عزة اللغة فى بلادها، تنبع من عزة هذه البلاد وأهلها، ورقيها تابع لرقى هذه البلاد وأهلها..

لقد بعث اليهود الغزاة من بين أطمار التاريخ لغة ميتة، جعلوها لغة التخاطب والعلم والأدب، وتحدثوا بها دون أن يخجلوا منها، فى المحافل الدولية والمؤتمرات والندوات ومجلس الأمن والأمم المتحدة؟ فلماذا تبدو لغتنا العربية يتيمة غريبة فى بلادها؟!

الشهيد محمد الدرة فى شعر المرأة العربية

فيما أعلم، فلم يعالج هذا الجانب أحد من الدارسين والنقاد، غير الباحث "أنس حسام النعيمى" صحيح أن هناك بعض الباحثين والباحثات تحدثوا معى بشأن دراسة شعر الانتفاضة الفلسطينية عموماً، ولكن التصدى لدراسة شعر المرأة فى هذه الانتفاضة، وفى جانب محدد منها وهو الشعر الذى قالته المرأة العربية فى استشهاد الطفل الفلسطينى "محمد الدرة"، لم يقم به غير باحثنا، الذى خصص أكثر من مائتى صفحة لتناول هذا الحدث الذى روع الأمة من أدناها إلى أقصاها، وحرك عواطف الملايين فى مشارق الأرض ومغاربها.. وكشف عن وحشية العدو الصهيونى وخسته.

لقد شاهد العالم طفلاً يحتمى بأبيه، والاثنان يحتميان فى ركن بناية فلسطينية من وراء برميل، والجنود النازيون اليهود الغزاة، يطاردون الولد ووالده، ويصوب الجندى اليهودىّ المتوحش فوهة بندقيته أو رشاشه إلى قلب الولد حتى أرداه قتيلاً أمام عدسات التلفزة العالمية، التى نقلت الصورة إلى شتى أرجاء الأرض..

حرك الحدث قرائح الشعراء والشاعرات، فكان "ديوان الشهيد محمد الدرة" الذى نشرته مؤسسة البابطين، وضم بين غلافيه مجموعة من أشعار المرأة العربية بلغت تسعة وستين ومائة بيت من الشعر العمودى المقفى (شعر الشطرين) وثمانية وثلاثين وتسعمائة سطر من الشعر الحر، رأى فيها الباحث مجالاً لدراسة مسهبة تناولت الشعر النسائى ودوره فى الانتفاضة بصفة عامة، وشعر المرأة حول محمد الدرة بصفة خاصة.

وتمثل هذه الدراسة إنصافاً من ناحيتين، الأولى تناول شعر المرأة والتعريف به فى مسيرة الجهاد ضد العدوان المستمر الذى تمارسه العصابات الصهيونية الغازية فى فلسطين المحتلة، والأخرى تقديم الشاعرة المسلمة فى التعبير عن هذه السيرة، التى يتجاهلها عادة التيار النقدى المهيمن على الساحة، ولا يستريح عادة إلى أى إنتاج أدبى يقدمه المنتمون إلى التصور الإسلامى.

وقد جاءت الدراسة فى بابين، الأول يتكون من ثلاثة فصول ويتناول الشعر النسائى ودوره فى الانتفاضة، منطلقاً من بيان مفهوم الشعر النسائى وآراء النقاد فيه، ويفرق بين الأدب النسائى والأدب النسوى. الأول لا يتناقض مع الأدب بوصفه إنتاجاً إنسانياً عاماً، أما الأدب النسوى فهو يمثل تياراً أدبياً له ملامحه وسماته وخصائصه ودعاته، والباحث ينحيه جانباً، لصالح الأدب النسائى. وقد خصص فصلاً طويلاً لأغراض الشعر النسائى فى الأمومة والطفولة وقضايا المرأة والتغنى بالوطن والمقاومة والجهاد والرثاء للشهداء والفخر بمشاركة النساء للرجال، ومناجاة الطبيعة، والحب والغزل، كما ركز على شعر الانتفاضة ودور المرأة..

تقول الشاعرة مريم البغدادى فى قصيدتها "درة الطفولة محمد":

لله درك، شـــــيعتك قلوبنــــــا	بـدم العيـون النـوازف المـدرار
من كل قلب قد أصيب صميمه	بالقهر، يصرخ: أين يوم الثار؟؟
أيــن العروبــة تســتعيد كرامــة	ذبحــت بخــذلان وذل فـــرار؟

وتقول الشاعرة مها إبراهيم يحيى فى قصيدتها "إلى الشهيد محمد الدرة":

يا آل صهيون لن ينجيكم حرس	إن الجحيم لكم دار بها سقر
جولوا وصولوا فإسرائيل هالكة	لن تستمر ولن يبقى لها أثر
وعد من الله حق لا مرد له	والوعد آت بإذن الله فانتظروا

وفى الباب الثانى نطالع صلب الدراسة وهو الدراسة النقدية لشعر المرأة فى الشهيد محمد الدرة، وقد خصص له أربعة فصول تتناول الأفكار والعواطف واللغة والأسلوب وموسيقى الشعر، والصورة الشعرية.

فى مجال الأفكار والعواطف التى استنتجها الباحث من شعر المرأة فى محمد الدرة، رأينا تركيزاً على الأمومة والطفولة، والبطولة والشهادة، وتقريع الخونة والمتآمرين على الأمة، والشكوى واستنهاض الهمم، والتمسك بالأرض والأمل فى النصر.

وفى جانب اللغة والأسلوب، فقد تناولت الدراسة ثنائية الرقة والخشونة، من حيث إظهار اللغة الرقيقة الناعمة فى التعبير عن مشاعر الأمومة وعواطفها تجاه الشهداء الأبطال، واستخدام لغة قوية جهيرة لاستنهاض العزائم والصبر والجلد والإصرار فى مواجهة العدو الغازى ووحشيته، كما أشارت الدراسة إلى ما قامت به الشاعرات من اقتباسات وتضمين لنصوص أخرى مختلفة فى أشعارهم، وتحدثت عن "التناص" بصورة ما، بالإضافة إلى الرمز والتكرار وبناء القصيدة.

وفى مجال الموسيقى، فقد رصدت الدراسة معالم الموسيقى الخارجية التى تعنى الوزن والقافية، والموسيقى الداخلية التى تعنى لدى

الباحث الجناس، الطباق، حسن التقسيم، التكرار، القوافى الداخلية. كما توقفت عند العيوب الموسيقية والعروضية، وذكرت التدوير وأخطاء الطباعة، والتجاوزات اللغوية نحواً وصرفاً.. ولا أظن هذه الأمور تدخل فى باب العيوب الموسيقية، وإن كانت تدخل فى أبواب أخرى، فالشعر الحر مثلاً، لا يرى فى التدوير عيباً، بل يراه فرصة مناسبة لاكتمال المعنى مهما طالت التفعيلات، وهناك نماذج عديدة رصدتها فى كتابى "الورد والهالوك: شعراء السبعينيات فى مصر".. على العكس من شعر الشطرين، كما نرى فى المثال التالى الذى أورده الباحث للشاعرة "عائشة فضل البواب":

ببـاب المخيم كنت صغيراً ولما خرجت

لأفتح باب الضياء وجدت مداى

يطول لأبعد خوف تخبأ تحت

سرير العواصم كل العواصم

فالمعنى يمتد عبر السطور الأربعة ليرصد حالة عربية راهنة فحواها الخوف والجبن والتقاعس.

على كل حال، فإن الدراسة تخصص آخر فصول الباب الثانى للحديث عن الصورة الشعرية بيانية وحسية وإيحائية، مع أن التفريق بين هذه الأنواع يحتاج إلى شىء من اجتهاد نقدى فى كل الأحوال.

ويختم الباحث دراسته بملخص لأبرز ما توصل إليه مؤكداً على أهمية عطاء المرأة العربية الأدبى فى مجالات القضايا العامة والإنسانية، يردف ذلك ببعض المقترحات التى نؤيده فيها، ومنها:

- الاهتمام بالدرس والتقويم للشعر النسائى بصفة عامة.
- ضرورة حرص الشاعرات على تنمية مواهبهن بالقراءة والخبرة والتجربة، والتعمق فى الفكر والخيال.
- إبراز دور المرأة العربية فى القضايا المصيرية وتنشئة الأجيال.

ولا ريب أن هذه المقترحات يجب أن تؤخذ مأخذ الجد، خاصة المقترح الثانى، الذى يؤهل المرأة للإتقان والتجويد فى المجال الإبداعى.

وقد ألحقت الدراسة مجموعة من الملاحق التى تعرف بالشاعرات موضوع البحث، وبعض الخرائط التى تحدد موضع المأساة التى أودت بالشهيد محمد الدرة، فضلاً عن المصادر والمراجع الكثيرة المتنوعة التى اعتمد عليها الباحث، مما يدل على إلمامه الجيد بموضوعه، ومتابعته فى معظم مصادره ومراجعه، فلم يكتف بالكتب والدوريات، بل امتدت المتابعة إلى الشبكة الإلكترونية (النت) التى استفاد منها استفادة ملحوظة..

ونتمنى للباحث التوفيق دراساته القادمة التى نأمل أن تعالج دائماً موضوعات لم تعالج من قبل.

* * * *

إصلاحات فى لغة الكتابة والأدب

تظل قضية اللغة العربية (معجماً وتعبيراً)، شاغلاً مهماً فى الواقع الثقافى المعاصر. وقد شهدت مع مطالع النهضة الحديثة (أواخر القرن التاسع عشر الميلادى= أوائل القرن الرابع عشر الهجرى)، جهوداً حثيثة لترقيتها وإثرائها، وفى الوقت ذاته، تعرضت لحملات عديدة من التشويه والتلويث، وصلت إلى المطالبة بإحلال العاميات واعتمادها وسيلة الكتابة والتعبير فى الصحف والتأليف، والتعليم والإعلام. وكان التدافع بين دعاة النهضة وأنصار الهدم قوياً ومثيراً، أنتج العديد من الدراسات المهمة فى مجال الدفاع عن الفصحى، وتجلية قيمتها وعطائها بوصفها لغة القرآن الكريم والحضارة العربية التى قادت العالم فى مرحلة مهمة، استمرت قروناً..

ما زال التدافع قائماً حتى هذه اللحظة، وما زال أنصار العامية مضافاً إليهم من يروجون للغات الأجنبية بديلاً للغتنا، واتخاذ وسائط التعبير، وخاصة المصورة، معبراً يعبرون عليه بالحرف اللاتينى والمصطلحات الأجنبية يبذلون جهودهم الجبارة بلا كلل ولا ملل.. ثم إن بعض المؤسسات فى العالم العربى مثل البنوك والفنادق والمطارات والشركات ذات الطابع غير المحلى، تعتمد اللغة الإنجليزية فى الخطاب والمكاتبات، أو التفاهم عموماً.. كل هذا يجعل من صدور كتاب الشيخ عبدالقدوس الأنصارى- رحمه الله- حول إصلاح اللغة العربية وتصويبها، خطوة مهمة لمواجهة هذا السيل العرم الذى يسعى لاكتساح اللغة الفصحى والغض من شأنها، بل الإطاحة بها بوصفها من أهم عناصر الهوية العربية الإسلامية.

والشيخ عبدالقدوس الأنصارى، من رواد الحركة الأدبية والثقافية العربية، أنشأ عام ١٩٣٧م، مجلة "المنهل" العتيدة التى ما زالت تصدر

حتى اليوم بجهود مشكورة لأبنائه وأحفاده، وتصارع عوامل الإحباط التى تجعل الأدب والثقافة فى مؤخرة الاهتمامات العامة، ومن المفارقات أن الرجل عندما أصدرها، كان موظفاً فى إحدى الجهات الإدارية البعيدة عن الفكر والأدب، ولكنه كان مشغولاً بقضايا اللغة ومشكلاتها، وكان معنياً بتتبع الأخطاء التى تقع فى المكاتبات الرسمية التى يحررها الموظفون مع البديل الصحيح أو الصواب الذى يستخرجه من بطون المعاجم والمراجع.. وكان ينشر ذلك فى جريدة "صوت الحجاز" تحت عنوان "كلمات شاع استعمالها ملحونة: دعوة إلى إصلاحها، خدمة للغة والأدب..".

وفى "المنهل" أتيح له أن يواصل رسالته الإصلاحية فى مجال اللغة وآدابها، فنشر على مدى عقود من الزمان كثيراً من الفصول، التى تناقش ما يجرى من أطوار وتغيرات بالنسبة للتعبير الأدبى معجماً وتركيباً، وهو ما تراكم فى تراث حافل وغنى، نشره فى بعض الكتب، وما زال بعضه متفرقاً لم يجمع بعد، وهناك بعض ثالث لم يزل مخطوطاً.

ويعد الكتاب الذى أصدرته أسرة "المنهل" مؤخراً، فى سلسلة كتاب المنهل، ويحمل رقم "١٨" وعنوان "إصلاحات فى لغة الكتابة والأدب" (١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م)، بداية مهمة لنشر تراث "عبدالقدوس الأنصارى"، وجمعه، وتقديمه للناس كى يستفيدوا منه، ويتعرفوا على كثير من التصويبات للغتهم الجميلة...

إن الكتاب الذى بين أيدينا، يعد واحداً فى سلسلة طويلة وممتدة لجهود اللغويين والأدباء العرب فى مصر والشام والعراق والمغرب العربى التى شهدها العصر الحديث، وهى جهود مشكورة لأنها تتسم بالصدق والإخلاص والجدية، وساعد عليها ذلك الاهتمام الكبير الذى ساد البلاد

العربية طوال العقود الماضية، وساعد عليه وجود دوريات أدبية وثقافية جادة فى العواصم العربية.

وإنى لأذكر فى هذا السياق نموذجاً لذلك النشاط اللغوى المهم الذى زكته المجامع اللغوية وأشعلت شرارته. فقد كانت مجلة "الأديب" اللبنانية تنشر لسنوات طوال مقالات مسلسلة للأديب محمد العدنانى (١٩٠٣-١٩٨١م) تتحدث عن الأغلاط الشائعة، وهو ما تبلور فيما بعد من خلال معجمين ضخمين الأول بعنوان "معجم الأخطاء الشائعة" والثانى بعنوان "معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة"، وكان الرجل قبل رحيله ينوى أن يصدر معجماً ثالثاً بعنوان "عثرات المعاجم".. وفى كل الأحوال، فإن العدنانى، مثله مثل عبدالقدوس الأنصارى، كان يشعر أن ما يفعله حلقة فى سلسلة متصلة من الجهود العربية لخدمة العربية وآدابها وكان يقول فى مقدمة "معجم الأغلاط..":

أنا لست سوى حلقة صغيرة فى سلسلة كبيرة وطويلة من رجال نذروا نفوسهم لخدمة لغتهم، وتصحيح ما يجرى على ألسنة الناس من أخطاء لغوية حباً فى إبقاء الحياة متدفقة فى شرايين الضاد، ومحاسبة من يلحن فيها، أو يحاول الحط من شأنها محاسبة عسيرة، لأن الإساءة إلى الضاد هى إساءة إلى هويتنا وعروبتنا.." (ط٢، مكتبة لبنان، ١٩٦٨، ص ز).

وهذا التكامل العربى فى الجهود الإصلاحية يدل عليه أن الأدباء العرب، كانوا ينظرون طوال القرن الرابع عشر الهجرى (أوئل القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين الميلاديين) إلى قضية اللغة العربية بوصفها قضية وجود وقضية حضارة، وليست مجرد أداة تعبير وحسب، وهو ما جعل الحوار حول اللغة يدور فى وقت واحد حول همومها

وآمالها عبر العواصم العربية جميعاً، ويجد صداه فى كل مكان به وسيلة نشر أو إذاعة.

إن كتاب "عبدالقدوس الأنصارى"، يقدم لنا بالإضافة إلى القضايا اللغوية، صورة ما للأجواء الأدبية التى سادت طوال عقود مضت، ويكشف عن تواصل الأفكار اللغوية والأدبية، والتأثر السريع- مع ضعف وسائط الاتصال نسبياً آنئذ- بما يكتب وينشر فى أى مكان فى العالم العربى والإسلامى.

وقد أحسنت "دارة المنهل" إذ جمعت فى كتاب الأنصارى مجموعة من الكتب التى سبق نشرها، وقدمته إلى القراء من خلال مجلد ضخم يقع فى نحو أربعين وخمسمائة صفحة، وتشتمل على:

١- الدفاع عن الفصحى.

٢- مع كتاب "الواضح من اللهجات العربية".

٣- التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم جدة: مطالعات.. وردود.

٤- بين الفصحى والدارجة.

٥- إصلاحات فى لغة الكتابة والأدب.

لقد حفرت كتابات الأنصارى- كما يقول الدكتور عبدالمحسن القحطانى- فى الجذر اللغوى لكثير من كلماتنا التى نظن أن الزمن اعتدى عليها، ليحرفها عن فصاحتها، إلى عاميتها، وإذا به يعيد ثقتنا فيها، ويثبت فصاحتها، مما يؤكد للقارئ أنه يتعامل مع لغة لا تخذله أبداً، فهى باتساعها وموسقتها، وكثرة مترادفاتها تحيل القارئ إلى أن يتعامل معها بحميمية وود، وأنه بمناغاتها تجعله لا يضيق بها ذرعاً..

إن الأنصارى على امتداد هذا المجلد الضخم يدافع عن الفصحى، ويبرهن على بساطة قواعدها، ويناقش ما يدور حولها بروح الباحث

المحقق الذى لا يكل ولا يمل، لأنه محب للغته، مؤمن بها، يرى فيها خلاصة الروح والوجدان.

ولعل هذا ما جعله يتوقف طويلاً عند اللهجات العامية فى الحجاز ونجد ومصر، ويتناول عناصر وجودها وتأثيرها، ويردها إلى أصولها الصحيحة، وفى هذا السياق فإنه يرى أن انحطاط الكلمة سبب وسبيل إلى انحطاط المجتمع، ولولا تسجيل التاريخ أن الخطأ فى الكلمة يسبب انحطاط الفكر ما كان نحو ولا صرف ولا ألفت كتب لغة أدب لترسم خطى الأوائل وللبعد عن مواقع الزلل اللسانى والبيانى، ولولا الاهتمام بما يؤديه الاستعمال الخاطئ من انحطاط الفكر والمجتمع ما قامت معركة كلمتى "هى" و"إياها" بين سيبويه والكسائى، وهما من هما، ولولا ذلك ما ألف الخليل وسيبويه وابن قتيبة ولا الثعالبى ولا ابن فارس ولا ابن منظور ولا الفيروزآبادى مؤلفاتهم اللغوية مدونين اللفظ العربى الصحيح لتحاشى سواه فى البيان.

فالذى يقرأ ما كتبه الصاحب بن عباد، وابن أبى دؤاد وابن العميد والمتنبى والمعرى والتوحيدى وصاحب الحلة السيراء يستدل مما يقرأ لهم من ناصع الكلمات على مدى رقى الفكر والمجتمع آنذاك.

والذى يقرأ ما كتبه من جاء بعدهم من الكتاب والشعراء فى عصور الانحطاط الفكرى والاجتماعى مثل المعصومى وأضرابه فى القرن الحادى عشر وما بعده فى هذه البلاد وغيرها سواء أكان شعراً أم نثراً يستدل من ذلك على مدى تردى الفكر والمجتمع فى عهدهم.

وهكذا تتحكم (الكلمة) فى مصير الأمم وفى ناصية التاريخ دائماً.

وبصفة عامة، فإن الأنصارى ينطلق فى إصلاحاته للغة الكتابة والأدب من منطلق أن الألفاظ اللغوية يجب أن تستعمل كما سمعت من

واضعيها الأولين، وكما تقرره معاجم اللغة وكتب القواعد بدون إجراء أى تغيير فيها، لأن أقل تغيير يحدث فيها هو إفساد لها.

وإذا تطرق الفساد إلى القالب، فإن اللب فى خطر عظيم من انتقال العدوى إليه.

والحق- كما يقول الأنصارى- أن مرونة الأدب العصرى وسهولة أساليبه وجاذبيتها سهلت على الكثيرين انتحال لقب "أديب"، مما نتج عنه فوضى أدبية ووجود كلمات ملحونة مغلوطة، بعضها يفيد عكس المقصود منه، أو يفيد معنى بعيداً.. ويقدم لذلك أمثلة عديدة يتناولها بالشرح والتحليل مما يكشف خطورة الاستعمال الخاطئ وآثاره الضارة، ومنها: غيورون بمعنى غير، النوايا بدلاً من النيات، همة طموحة بدلاً من همة طموح، والملوكى بدلاً من الملكى، والتوادد بدلاً من التواد، بديهى وطبيعى بدلاً من بدهى وطبعى، النوادى بدلاً من الأندية والأنديات... إلخ.

إن كتاب "إصلاحات فى لغة الكتابة والأدب"، يعد إضافة مهمة للجهود اللغوية المعاصرة التى تعمل من أجل الحفاظ على لغتنا الجميلة، وبيان أصالتها فى مواجهة زحف شرس للعاميات واللغات الأجنبية ينتقص منها ويزرى بها نتيجة لقصور فى تعليمها، وضعف فى أبنائها، وأحوال غريبة على الأمة وأفرادها. رحم الله الأنصارى، وجزاه خيراً على ما قدم للغة القرآن الكريم.

* * * *

البناء الفنى فى الرواية السعودية

هذا أديب ناقد أغبطه وألومه. أغبطه على موهبته وتجربته ومحصوله الثقافى والمعرفى. وألومه على تبديد كل هذا فى الإدارة والأعمال التى يمكن أن يقوم بها آخرون لا يمكنهم امتلاك ما يملكه أو أداء ما يؤديه فى مجال النقد والإبداع- فهو ناقد مؤهل، استوعب الأدوات النقدية استيعاباً حولها إلى ملكة يستطيع بها ومن خلالها أن يقرأ العمل الأدبى قراءة جادة واعية تكشف مستواه وتحدد تضاريسه وتبرز مكوناته وخفاياه. وهو أديب يقرض الشعر ويكتب القصة، وله فيهما إنتاج جيد وراق يرشحه لأن يكون ذا شأن كبير فى المستقبل المنظور.. بيد أن دوامة "العمل الإدارى" تجرفه بعيداً عن مجاله الحيوى، وتلقى بوقته الثمين فى أضابير وتوقيعات واجتماعات ومناقشات، أعرف ضراوتها وشراستها فى العدوان على الموهبة والإنتاج الأدبى والنقدى عموماً، وقد لدغتنى ذات يوم عندما كنت فى منصب متواضع "رئيس قسم علمى" بإحدى الكليات، فلم تعتدى على عالمى الأدبى وحده، ولكنها تجاوزت إلى العدوان على الحياة الخاصة: النوم، الراحة، الأسرة، الأبناء.. وأحمد الله أنها لم تتجاوز السنوات الثلاث، عدت بعدها إلى أوراقى وأقلامى سعيداً هادئاً مطمئناً!

و"حسن حجاب الحازمى" مؤلف كتاب "البناء الفنى فى الرواية السعودية" هو هذا الأديب الناقد الذى أغبطه وألومه. ومعرفتى به منذ صباه الباكر، وبوالده الصديق الشيخ "حجاب الحازمى" أحد أعلام الأدب فى المملكة العربية السعودية المعاصرين، جعلتنى أتابع مسيرته الأدبية

والعلمية، وأقدر موهبته الأدبية والنقدية التى تجلت فى بعض مجموعاته القصصية والشعرية، وكتبه النقدية، وخاصة كتابه المهم "البطل فى الرواية السعودية"، الذى كان فى الأصل رسالته للماجستير، وهو يقدم لنا الآن كتابه المهم الذى يتكامل مع هذا الكتاب، وهو البناء الفنى فى الرواية السعودية منذ بداية القرن الخامس عشر الهجرى حتى العام الثامن عشر منه، وهى فترة حددها لتكون مجال بحثه لأسباب عدة أهمها كثرة الإنتاج الروائى فى الفترة الأخيرة داخل المملكة، وقد رصد ما صدر طوال هذه الفترة فوجده يتجاوز مائة رواية يتراوح مستواها بين الضعف والقوة، انتخب منها ستين، ثم انتخب من الستين عشرين رواية تمثل نماذج مختلفة، وأقام عليها بناءه النقدى لاكتشاف بنائها الفنى..

وقد تسلح فى دراسته بالتعرف على أهم التنظيرات النقدية لفن الرواية عموماً ومكوناته الداخلية لدى النقاد الأجانب والعرب على السواء، ولأن هذه المكونات تتداخل بصورة وأخرى فى تشكيل الرواية، فقد فصل بينها فى محاولة لتيسير الدراسة والتمييز بين مكون وآخر، وهو ما جعلها تشتمل على سبعة فصول، يسبقها تمهيد مهم ينقسم إلى قسمين أولهما يقدم لمحة موجزة عن الرواية السعودية واتجاهاتها فى فترة البحث (١٤٠٠- ١٤١٨هـ) والآخر مفهوم البناء الروائى، وقد لاحظ أن العناصر الأساسية التى يتكون منها هذا البناء معروفة لدى النقاد، إلا أن الصعوبة التى ظلت تواجههم هى التحديد الدقيق لكيفية تفاعل هذه العناصر وحركتها داخل النص بصورة يتحقق من خلالها تماسك البناء وفنيته. ومع هذا المشكل، فإن الشكل الروائى قابل للتغير بصور لا حدود لها.

وكنت أتمنى أن يبدأ دراسته بالفصل السابع الذى جعل عنوانه "أسلوب التناول الروائى" فهو المدخل الطبيعى للبناء الفنى، إذ إن الكاتب عادة يقرر ما إذا كان سيستخدم ضمير الغائب أو ضمير المتكلم أو ضمير المخاطب (وهو ما أغفلته الدراسة، ربما لعدم وجود روايات تعتمد هذا الأسلوب) وكانت تجب الإشارة إليه على كل حال، كما أشار إلى تعدد الرواة أو الضمائر.

بيد أن الدراسة بدأت بالإشارة إلى الأحداث الروائية، فتتناول الأحداث الرئيسية والأحداث الثانوية، وبناء الأحداث وفق أنساق التتابع والتضمين والتناوب.. ثم انتقلت إلى الحبكة من خلال أنواعها وعناصرها. فهناك الحبكة التقليدية والحبكة الحديثة، ثم الحبكة المتماسكة والحبكة المفككة والحبكة البسيطة والحبكة المركبة.. أما عناصر الحبكة فتتمثل فى البداية ووسائل التشويق والتدافع أو الصراع والإيقاع والتوقيت أو الحركة، ثم النهاية.

وتنبغى الإشارة إلى أنه يحمد للدراسة بصفة عامة، تقديم مدخل تنظيرى لكل فصل، بحيث يتضح للقارئ طبيعة موضوع العمل أو العنصر البنائى الذى تتناوله الدراسة من ناحية، وتنضبط حركة البحث فى الموضوع أو العنصر من ناحية أخرى.

فى الفصل الثالث دراسة للشخصيات فى الرواية السعودية، وتتحدث عن الشخصيات الرئيسة من حيث البناء والأبعاد (البعد الجسمى، البعد النفسى، البعد الاجتماعى) والشخصيات الثانوية من حيث بناؤها أيضاً، وعلاقاتها مع الشخصيات الرئيسة ودورها فى البناء الروائى.

وتخصص الدراسة الفصل الرابع للمكان من حيث أنواعه: المدينة، القرية، الصحراء، البحر، الأحياء، البيوت، المسجد، أماكن الدراسة، المقهى.. ثم العلاقة بين المكان والحدث، والمكان والشخصية؛ مؤثراً فيها، وكاشفاً عنها، ومتأثراً بها.

أما الزمن فى الرواية السعودية، فتتناوله الدراسة على امتداد الفصل الخامس فى نوعين الأول: الزمن الروائى من حيث الماضى والحاضر والمستقبل مع التركيز على الاسترجاع والاستباق، وأيضاً من حيث السرعة والبطء أو ما يسمى (الزمن النفسى) من خلال التلخيص والحذف والمشهد والوقفة.

والآخر هو الزمن التاريخى.

وفى الفصل السادس تتحدث الدراسة عن اللغة فى الرواية السعودية من خلال السرد والحوار والرمز. وفى السرد، تتناول مستوياته فى اللغة التقريرية، واللغة التصويرية واللغة التعبيرية واللغة التسجيلية واللغة المرجعية (المضمنة)، كما تفرق الدراسة بين مستويات لغة السرد وبلاغة لغة السرد.

وفى مجال الحوار تشير الدراسة إلى مستويات لغته، وهى: الحوار باللغة الفصيحة والحوار باللهجة العامية والحوار الذى يمزج بين الفصحى والعامية. كما تشير إلى عيوب الحوار: عدم ملاءمته للشخصيات والبيئة أو طوله، أو مسرحته.

أما الرمز، فهو كل إشارة أو علامة محسوسة تذكر بشىء غير حاضر، والروائى يستطيع أن يستخدم رمزاً عاماً ويوظفه توظيفاً خاصاً فى عمله. لكن الكاتب قد يوجد رمزاً خاصاً له معنى وأهمية داخل عمله فقط.

وتلحق الدراسة ملاحق وفهارس مهمة تهم الباحثين، وتساعدهم فى التعرف على الرواية السعودية فى فترة البحث من خلال الجداول التى يطالعها، من حيث النسق البنائى أو اللغوى أو استخدام الضمير.

كما يستطيع الباحثون التعرف على الروائيين من خلال تراجم مختصرة، وإن كانت المشكلة فى عدم ذكر تواريخ ميلاد الروائيات، مما يوقع الباحث فى حيرة طريفة، وخاصة إذا أراد تصنيفها حسب الأجيال، بينما الروائية بوصفها امرأة حريصة على عدم ذكر تاريخ ميلادها، وفقاً لمنهج نسوى يرفض الإفصاح عن سن المرأة، مع أن هناك بعض الروائيات ذكرن تاريخ الميلاد دون حرج!

وهناك فهارس للأعلام والروايات، وهى مفيدة على كل حال فى إرشاد الباحثين إلى الأعلام الذين ورد ذكرهم فى الدراسة وما يتعلق بهم، وايضاً تواريخ إصدار الروايات وأصحابها وأماكن نشرها عبر المدة التى تناولتها الدراسة وهى ١٤٠٠- ١٤١٨هـ.

لقد خلص الباحث إلى أن الرواية السعودية سلكت فى بناء أحداثها جل الطرق المتبعة روائياً، وأن الحوار باللغة العربية الفصحى سجل حضوراً أقوى وأكبر فى الرواية السعودية يليه الحوار الذى يمزج بين الفصحى والعامية، وأن استخدام الروائى الخارجى (ضمير الغائب) أكثر تواتراً واستخداماً فى الرواية السعودية من الراوى الداخلى، والرواة المتعددين.

ولا شك أن وضوح المنهج النقدى فى ذهن الباحث "د. حسن حجاب الحازمى"، قد ساعده على تقديم دراسة جيدة وعميقة، تجعلها مرجعاً مهماً فى مجال الدراسات النقدية للرواية السعودية.

*   *   *   *

بنات الرياض: المرأة تنتظر الرجل!

تعالج رواية "بنات الرياض" قضية محلية من خلال ما يعرف فى الغرب بالأدب النسوى الذى تروج له مجموعة من الكاتبات فى بلادنا العربية، وإن لم ترق إلى مستوى المعالجات التى وصلت إليها بعضهن من حيث التطبيق. فهى محكومة بالواقع المحلى فى فهم الحدوتة وبنائها. وتلح الرواية (دار الساقى- ط٤- بيروت- ٢٠٠٦م)، على قضية أشبعت تناولاً منذ "ألف ليلة وليلة" حتى الآن، وهى ظلم الرجل للمرأة، من خلال العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع، وفى طبقته العليا (السوبر) على وجه التحديد. ويبدو الرجل شاغل المرأة الأوحد، تتوارى إلى جواره بقية القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فضلاً عن هموم البسطاء والمهمشين والفئات الأخرى..

أربع بنات، كل منهن، لها مشكلة مع الرجل، الذى يتحول مهما كانت مميزاته أو امتيازاته إلى "رجل مثل الرجال" لا يملك إرادته ولا يحافظ على كلمته، ويخضع لتيار المجتمع المهيمن بعاداته وتقاليده وقيمه التى تتناقض مع العدل والحرية والوفاء.

والمرأة فى كل الأحوال، أو معظمها، تتحول إلى ضحية تعانى الانكسار والهوان والمذلة بسيف الطلاق والإهمال والمشاعر الباردة.

ومن خلال العلاقات بين البنات الأربع (سديم، لميس، قمرة، ميشيل) ومعهن أم نوير أو أم نور من ناحية، ورجالهن من ناحية أخرى، نكتشف فجائع لا حصر لها، وكميات من الدموع والآهات باتساع العالم.. ولكنهن فى النهاية يأنسن إلى الرجال بطريقة ما، وتجف الدموع وتتوقف الآهات فى ظل "الأعداء التاريخيين!"- أعنى الرجال.

وعلى خلاف الضجة الكبيرة التى أثيرت حول الرواية، ورافقت صدورها، على المستوى الصحفى والتلفزيونى، وامتدت إلى أرجاء العالم العربى، وربما تجاوزته، فقد جاءت الرواية مخيبة للآمال من حيث الصنعة الفنية والرؤية الفكرية.

والرواية لها عيوب العمل الأول من حيث الفجوات والبناء واللغة الروائية، ولعل عيوب اللغة أكثر وضوحاً، إذ كشفت عن الترخص والاستسهال، واستخدام اللهجة العامية لمنطقة نجد التى قد لا يفهمها أهل جيزان، فما بالك بالعرب خارج المملكة من المحيط إلى الخليج؟ لقد زاوجت الرواية بين الفصحى والعامية فى السرد والحوار بالإضافة إلى استخدام جمل وعبارات وألفاظ أجنبية كتبتها بالعربية، واضطرت فى بعض الأحيان إلى ترجمتها، وهو ما يجعل العمل الأدبى يكاد يكون مغلقاً أمام القارئ العادى خارج منطقة نجد. وأستأذن هذا القارئ لأقدم له فقرة واحدة ليرى مدى تأثير العامية المحلية فى إقامة الحواجز بينه وبين النص، وخاصة إذا كان من منطقة أخرى فى العالم العربى. والفقرة التى أقدمها من أوضح الفقرات لقارئ مثلى عاش فى الرياض سنوات لا بأس بها: "بعدين شويه شويه حتبدأ مرحلة تقالة الدم، واستلمى: ليش مطنشتنى؟ ليش ما بتردى على مسجاتى بسرعة؟ لا تكونى تكلمى واحد تانى؟ ما أبغاكى تكلمى واحد غيرى. باغير عليكى. إذا جيتى مره تانية، وما لقيتينى لا تظلى أون لاين، ومن هادا الكلام اللى يسم البدن ويخليكى تديلوا بلوك والا اقنور على وشو زى الحلاوة علشان يبطل يعمل نفسو طرزان عليكى مرة ثانية، وتروحى تشوفى غيرو.." (١٧٦-١٧٧).

وقد يكون البناء صورة عصرية لما آل إليه المجتمع من تطورات فى الحياة العامة من حيث المعيشة والسكن والمواصلات والاتصالات والمأكل والملبس، ولكن طغيان النبرة الخطابية الحادة التى خصصت لها الرواية جزءاً غير يسير فى مقدمة كل فصل للرد على المعارضين المتخيلين، أذهب بعفوية الحكى أو القص أو السرد.. إن الرواية تختار صيغة رسائل البريد الإلكترونى (الإيميلات)، بديلاً عن الفصول التى تبلغ خمسين رسالة إلكترونية أو فصلاً، وكل رسالة أو فصل لها عنوان يكشف عن مضمونها، فالرسالة الأولى عنوانها: سأكتب عن صديقاتى، والثانية: البنات يحتفلن بقمرة على طريقتين، والثالثة: من هى نوير؟ والرابعة: ماذا فعل القنبل بقمرة فى تلك الليلة... وهكذا.. مقدمة الرسالة الإلكترونية أو الفصل هى البداية باللغة الإنجليزية حيث تبين المرسل إليه والمرسل والتاريخ والموضوع (عنوان الفصل). وبعد ذلك يأتى الاقتباس الذى تضمنه الرواية بداية الرسالة أو الفصل، وهو اقتباس يشبه العنوان فى الدلالة على المضمون، والاقتباسات عديدة ومتنوعة تبدأ من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال أرسطو، و ت. س. إليوت حتى أشعار نزار قبانى وفاروق جويدة وغازى القصيبى وغيرهم. غير أن الظاهرة اللافتة هى كثرة اقتباسات الأغانى بكل ألوانها المحلية والعربية لدرجة يمكن معها القول إن الرواية تقدم ثقافة غنائية تفوق أية ثقافة نوعية أخرى بالنسبة للمرأة، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الجو الذى تعيشه المرأة من حيث المحدودية والعزلة واعتماد العاطفة قبل العقل.

وفى الوقت الذى تتعامل فيه الرواية مع التفاصيل الصغيرة فى حياة الشخصيات الروائية، فإنها ركزت غالباً على الصورة الخارجية أو الحركية لهذه الشخصيات وخاصة فيما يتعلق بالرجل وانتظاره ليدخل

عش الزوجية أو لئلا يخرج منه.. إنها شخصيات تتبدل عواطفها ومشاعرها وفقاً للمكان والزمان، ولكن الرواية لا تقدم تفسيرات مقنعة لهذه التبدلات، اللهم إلا الرغبة والميل والهوى..

ثمة معضلة يتجاهلها دعاة الأدب النسوى بصفة عامة فى العلاقة بين الرجل والمرأة، وهى أن الزواج فى المفهوم الإسلامى- وليس التقليدى أو الاجتماعى- عقد بين طرفين لإقامة مؤسسة هى الأسرة، يدخلها الطرفان برغبتهما ورضاهما وليس كرها، وعلى كل منهما أن ينهض بواجباته نظير حقوقه، ولا يجوز بعد التوقيع على العقد أن ينكص طرف على عقبيه مع استمرار العقد..

وللأسف، فإن هذه المعضلة توضع على الرف لدى دعاة الأدب النسوى، ويحل مكانها الحلم الرومانتيكى الذى يفترض علاقة يحكمها الخيال وتجاهل الواقع بما فيه من أعباء وأثقال، وهذا الحلم ينتهى واقعياً بمجرد انتهاء شهر العسل والإنجاب لمواجهة ضرورات الحياة، وتبقى المودة والرحمة أساساً عاماً لحياة عملية مثمرة، ولذا يمتلئ هذا الأدب بالحزن والدموع والانكسار والتشاؤم وإلقاء التبعة على الغير: فرداً أو مجتمعاً أو تشريعاً..

إن طرح قضايا المرأة من خلال سياقات فنية متوازنة أكثر جدوى فى خلق حوارات مفيدة وحصد ثمار ناضجة وتحقيق تطور ملموس فى حركة المجتمع.. أما النظر بعين واحدة، فغالباً ما يكون له مردود عكسى لا تفيد معه المرافعات الطويلة فى بدايات الرسائل أو الفصول كما فعلت رواية "بنات الرياض".

* * * *

ولا عزاء لأدونيس فى نوبل!

قبل فترة كتبت عن جائزة نوبل التى منحت فى أكتوبر ٢٠٠٦م للروائى التركى "أورهان باموك" الذى كتب عدة روايات تعالج الصراع بين الشرق الإسلامى والغرب الصليبى، وتنحاز للطرف الثانى بصفة عامة، حيث عبر عن إدانة بلاده بسبب المذابح المزعومة ضد الأرمن والأكراد التى يدعيها الغرب، وقلت إن "باموك" لو أدان مذابح الغرب الاستعمارى الصليبى ضد العراقيين والأفغان والبوسنيين، وغيرها.. ما كان قد حصل على جائزة نوبل أبداً.

كان عدد من الكتاب العرب وغير العرب من الذين ينتمون إلى العالم الإسلامى، ينتظرون الحصول على الجائزة، ولكن "التركى" سبق إليها. وكان من بين هؤلاء الكتاب على أحمد سعيد (أدونيس)، وهو من الطائفة النصيرية (التى تسمى بالعلوية) الحاكمة فى دمشق، وانتمى إلى القوميين السوريين، وبعد الوحدة السورية المصرية ترك سورية احتجاجاً على الوحدة وعاش فى بيروت، ويقال إنه "تنصر" وتم تعميده فى جامعة القديس يوسف، التى منحته درجة دكتوراه الفلسفة فى الأدب عن كتابه الشهير "الثابت والمتحول" الذى صدر فى ثلاثة أجزاء.

وأدونيس؛ الذى ولد عام ١٩٣٠ فى قرية قصابين باللاذقية (معقل الطائفة النصيرية/ العلوية)، هو فى الأصل شاعر، أصدر مجموعة كبيرة من الدواوين، من أشهرها: أغانى مهيار الدمشقى، دليلة، قالت الأرض، وقدم قراءة للشعر العربى القديم، ومختارات منه محتذياً فى ذلك الشاعر الرائد "محمود سامى البارودى"، مع الفارق الزمنى والفكرى بين الاثنين.

وأبرز أفكار أدونيس، التى عبر عنها بصورة واضحة وصارمة فى مجلة مواقف، فضلاً عن شعره، هى رفض الإسلام، والإيمان بمقولات لينين عن الدين بصفة عامة، وكان يمثل فى الستينيات مع مجموعة

من الشعراء اللبنانيين ما يسمى بشعراء الرفض. والرفض ليس التمرد على الاستبداد أو الظلم أو التخلف، ولكنه رفض الإسلام والعروبة والوحدة العربية، ويركز دائماً على أن الحياة العربية ليس بها محور غير الانحطاط، وأن العربى لا يخرج عن كونه طفلاً أو هيكلاً عظمياً، وأنه ليس الله فى المنطقة العربية هو الميت ولكنه كذلك العالم والإنسان. وأن القرآن "خلاصة تركيبية لمختلف الثقافات التى نشأت قبله، وأن عودة العربى إلى نقائه الأول لا يمكن أن تتحقق إلا فى ضوء عودة الشاعر يوسف الخال إلى المسيح!

وشعر "أدونيس" يمتلئ بعدد من الرموز التى تدور حول النار، وفينيق، والصلب، والجلجلة، والطوفان، والمطر، والجرح، والوثنية. ثم إنه يتخذ من "مهيار الديلمى" الشعوبى القديم رمزاً له فى "مهيار الدمشقى".

ومن أشعاره: "إننى مهيار هذا الرجيم/ إننى خائن أبيع حياتى/ إننى سيد الخيانة". ومنها: "لا الله اختار ولا الشيطان/ كلاهما جوار/ كلاهما يغلق لى عينى" أو "أعبد فوق الله والشيطان/ دربى أنا أبعد من دروب/ الإله والشيطان" أو "خريطتى أرض بلا خالق/ والرفض إنجيلى".

وبعد أن انتهى "أدونيس" شاعراً بحكم الزمن وتقدم السن واحتضان الأنظمة الشمولية له، واحتفائها به فى مناسباتها المختلفة، بل واختلاق المناسبات التى تدعوه إليها، وتقيم له الأفراح والزينات، وتضىء له الشاشات الصغيرة، ليعبر عن استعلائية مرذولة، واحتقار للآخرين وخاصة من الشعراء والنقاد والمفكرين الذين ينقضون أفكاره وتصوراته، فقد راح بعزف على وتر آخر، يصب نغماته فى آذان الغزاة اليهود والغرب الاستعمارى. وبدلاً من أن يقف مع شعوب الأمة العربية فى

كفاحها ضد الغزاة والأعداء، فإنه ينعطف تحت مسميات براقة، ليلوى أعناق المضطهدين من أمته نحو قضايا هامشية، وكأنه يؤكد على صواب ما يفعله الغزاة والأعداء.

من ذلك مثلاً خطابه الذى وجهه إلى السلطات اللبنانية عام ٢٠٠١ فى جريدة الحياة، والانتفاضة الفلسطينية الثانية فى عنفوانها يطالبها فيها بمنع عقد مؤتمر "مراجعة الصهيونية". إنه لا يشير أبداً إلى المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطينى، وعدوانها المستمر على جنوب لبنان وتحليق الطائرات اليهودية فى السماء اللبنانية التى يعيش تحتها.

إنه يرى أن "الثقافة العربية" هى الثقافة المجرمة الآثمة التى يجب أن توجه إليها للعنات، لأنها تنشغل بمطاردة اليهود وتدمير الغير، والنتيجة أنه لم تعد لدينا قضية إنسانية. تتجاوز حدود أنانيتنا ومصالحنا المباشرة. ويطرح مثالاً غالطاً حين يقول: ألا يمكن أن نكون فى حرب مع بريطانيا وسلام مع شكسبير؟ ولماذا لا يمكن أن نحارب إسرائيل ونسالم فى الوقت نفسه الفن والأدب اللذين ينتجهما كبار الأدباء والفنانين اليهود خارج إسرائيل وداخلها؟".

لا شك أن الشاعر الكبير أدونيس، لا يدرى شيئاً عن واقع الصراع الجارى بين الغزاة النازيين اليهود، وبين من يفترض أنهم شعبه وأهله وأنه واحد منهم. ولا ندرى هل لديه علم عما يقوله عنا أدباء اليهود وفنانوهم وصورة العربى فى قصصهم وأشعارهم ومسرحهم؟

هل تزعجه العمليات الاستشهادية، وعمليات المقاومة عموماً، ولا يزعجه قصف بيروت وغزة وخان يونس والمخيمات الفلسطينية؟

وهل ما يقوله أدونيس عن "ثقافتنا المتوحشة" له علاقة بالمؤتمرات التى انعقدت فى برشلونه وغيرها وشارك فيها مع نفر من اليهود الغزاة؟

لا ريب أن أدونيس كان يتهيأ بكلامه وأفكاره ليتلقى جائزة نوبل، ولكنها للأسف أخطأته، وذهبت إلى "درويش" أكثر عشقاً للأوربيين، وهو التركى "أورهان باموك".

ويبدو أن بعض الجهات العربية لم يرضها أن يحزن "أدونيس" الذى طال انتظاره لنوبل، ولم تأت، فجهزت له نوعاً من التعويض الذى يجعله موجوداً على الساحة، ولو أعاد إنتاج كلامه القديم، فقد قررت مكتبة الإسكندرية استضافته لمدة أسبوعين ضمن برنامج يسمى الباحث المقيم، يلقى فيه أربع محاضرات، ويلتقى عدداً من رواد المكتبة المختارين بدقة، فيلقى محاضرة عن "الثابت والمتحول فى الثقافة العربية: قراءة لكتابه الثابت والمتحول" وأخرى عن "الذائقة الشعرية" وثالثة عن "الشعر والفكر" ورابعة عن "الشعر والهوية".. وبذا تكون مكتبة الإسكندرية قد قدمت عزاءً مناسباً لأدونيس الذى يرى ثقافة أمته لا تهتم بالإنسان الذى يحيى الذات وتحيا بها الذات وتساعد الآخرين على الحياة. لكنها مشغولة بتشويه الإنسان- اليهودى والاستعمارى طبعاً- وقتله والتضحية به ونفيه!!

ما رأيكم دام فضلكم فى أسطورة "أدونيس" الذى يرى فيمن يقتلنا إنسانية وتحضراً، ويرى فى ثقافتنا توحشاً وتخلفاً؟

حرية أولاد حارتنا.. وحرية آلاف المعتقلين!

لا يكف مثقفو السلطة، وخاصة من يطلق عليهم مثقفو الميكروباص، عن القيام بأدوار المهرجين الذين يشغلون المجتمع عن قضاياه الأساسية وحقوقه الدستورية والقانونية، من خلال القيام ببعض

العروض الهزلية السخيفة الباردة التى لا تجد قبولاً لدى الأغلبية العظمى من المثقفين الشرفاء، أو الذين تم إقصاؤهم واستبعادهم من الواقع الثقافى نتيجة للممارسات الاستبدادية والقهر السياسى الاجتماعى الذى تتبناه السلطة البوليسية الفاشية، وخدامها غير الأوفياء من حملة الأقلام التى لا تعرف الوضوء ولا الصيام!

كان رحيل "نجيب محفوظ" مناسبة ذهبية لهؤلاء الخدم، كى يحملوا على الإسلام والمسلمين، ويتهموا الجميع بالتكفير والظلامية والرجعية والردة(!) والتخلف والتطرف والإرهاب، ويلحوا على محاولة اغتيال "نجيب محفوظ" الفاشلة التى نسبت إلى شخص لا علاقة له بالأدب ولا بالإسلام، وزعموا أنه قام بمحاولته بناء على فتوى تبيح إهدار دم "نجيب محفوظ" من أحد الدعاة، وليتهم يتكرمون بنشر هذه الفتوى حتى نصدقهم، بعد أن كثرت أكاذيبهم وادعاءاتهم لخدمة سادتهم الذين منحوهم من مال الشعب وعرقه ما لا يستحقون.

وكانت الداهية الدهياء- إذا صح التعبير- هو الحديث عن رواية "أولاد حارتنا" وضرورة نشرها، تحدياً للظلاميين الرجعيين المتخلفين، أى الإسلاميين، وكفاحاً من أجل حرية الرأى والإبداع، ووفاء لصاحب جائزة نوبل!

وانشغل بعض "مثقفى الميكروباص" من نفايات حزب العمال الشيوعى، الذين تأمركوا وصاروا خدماً فى بلاط التنظيم الطليعى الجديد، الذى يسمى لجنة السياسات بالحزب الوطنى، بقضية أولاد حارتنا، واستنفروا كتاب السلطة وغيرهم للقيام بحملة غير مقدسة لنشر الرواية التى أوقف نشرها فى كتاب بعد نشرها مسلسلة فى "الأهرام" لدى كتابتها على عهد "محمد حسنين هيكل". ثم نشرها "سهيل إدريس" فى بيروت،

ووزعت فى مصر على رءوس الأشهاد، كما نشرتها جريدة "توتو" حتى قرأها من لم يفكر فى قراءتها أصلاً!

تحولت "أولاد حارتنا" عند "مثقفى الميكروباص" إلى قضية استراتيجية وقومية، تستحق الحشد، وتجييش الجيوش لقهر الظلاميين الغزاة الذين عدهم البعض "أخطر من اليهود" ولن يتحقق النصر القومى إلا بنشر الرواية، وتوزيعها بكل وسيلة..

كان نجيب محفوظ- رحمه الله- قد رفض نشرها فى حياته، وظل على موقفه حتى لقى ربه- وكان قراره الثابت ألاّ تنشر الرواية إلا بعد موافقة الأزهر الشريف، وكتابة مقدمة لها بقلم الوزير السابق "أحمد كمال أبوالمجد"، وما لم يحدث ذلك، فلن يوافق أبداً على نشر الرواية.

هذا ما كان من أمر صاحب الرواية وهو حى يرزق.. فماذا كان من أمر مثقفى الميكروباص؟

أصروا بعد رحيله على تحويل المسألة إلى إحدى قضايا مصر الرئيسية، ورفعوا شعارات الحرية والإبداع والتحدى، مع أن صاحبها كان موقفه عكس ذلك.

والمفارقة أن القوم وهم يهتفون بالحرية، يتناسون "الحرية الأساس"، "الحرية الحقيقية"، "الحرية الكبرى"، وهى حرية الشعب المظلوم الذى يعيش على مدى نصف قرن أو يزيد فى حالة مصادرة كاملة لكرامته وإنسانيته وحقوقه فى المشاركة والعمل والإبداع بصنوفه كافة، هذا الشعب الذى يحرم عليه أن يلتقى أكثر من خمسة أفراد على مائدة طعام بحكم قانون الطوارئ المزمن، حيث لا يتورع عن مصادرة حياة أى مواطن مهما علا مركزه، وكانت قيمته. وينسى هؤلاء المثقفون "الميكروباصيون" أن معتقلات مصر تعج بآلاف المعتقلين، يقدر عددهم

بنحو ثلاثين ألف معتقل سياسى، يعيشون وراء القضبان وفى ظلام الزنازين، ولم يتكلموا عن الإفراج عنهم ليروا أولادهم الذين ولدوا فى غيبتهم، والأمهات الشابات اللاتى شخن قبل الأوان، وترمّلن فى عز شبابهن، مع أن أزواجهن على قيد الحياة، ولكنهم فى قبضة الجلاد!

ينسى المثقفون الخدم القضايا الكبرى، ويتعلقون بقضايا مفتعلة لا تهم إلا من أثاروها وتحدثوا عنها. إنهم يعلمون جيداً أن رواية "أولاد حارتنا" لا تعنى المواطنين بقدر ما تعنيهم سلامة القطارات والعبارات التى تصعقهم أو تفرمهم أو تغرقهم أو تسحقهم يومياً بلا أدنى قلق لدى الحكومة الظالمة المستبدة التى يخدمونها ويغترفون من أموالها.

إن المثقفين الخدم يعلمون جيداً أن رواية "أولاد حارتنا" من أردأ روايات "نجيب محفوظ" فنياً، وأنها باردة الصياغة والبناء، ولعل هذا هو السبب فى عدم إصراره على نشرها، لأنه بحسه الفنى يدرك أنها رواية ضعيفة، ولا يعيب "نجيب محفوظ" ولا غيره من الكتاب أو الشعراء، أن يتخلى أحدهم عن عمل يشعر بضعفه أو هبوط مستواه عن أعماله الأخرى، وبالنسبة لى شخصياً، فقد تجرعت المر حتى أكملت قراءتها، ولم أشعر فيها بلذة فنية أو موضوعية.. وهى لا تساوى شيئاً بجوار عمل آخر مماثل لنجيب مثل "ملحمة الحرافيش" الزاخرة بالحياة والفكر والتشويق والصياغة الشعرية التى ترقى بالأسلوب السردى إلى مستوى عال، وقد سجلت رأيى النقدى فيها من خلال دراسة طويلة نشرتها إبان صدورها فى مجلة "البيان" الكويتية.

مشكلة الفصام التى يعيشها مثقفو السلطة تجعلهم يخونون قضايا أمتهم، ويتنكرون لها، ويظنون أنهم بذلك يقدمون خدمة جليلة لسادتهم وكبرائهم الذين أضلوهم السبيل.

ومع ذلك فلدينا مثقفون محترمون يقفون عند القضايا الجادة سواء لدى محفوظ أو غيره، وتأمل على سبيل المثال الملف الذى نشرته مجلة "وجهات نظر" حول نجيب محفوظ فى عدد أكتوبر ٢٠٠٦م، وقارنه بالتهريج الذى قامت به بعض الصحف، والبهلوانية التى حركت بعض المجلات للتكسب بنجيب محفوظ، وإلهاء الناس عن جرائم السلطة فى حق شعبها، وحق مواطنيها الذين يسكن منهم آلاف المعتقلين فى قعر مظلمة، منذ ربع قرن، ولا تستجيب فى الوقت ذاته لأحكام القضاء المتكررة بالإفراج عنهم وإطلاق سراحهم.. بل تعتقل كل يوم مزيداً من الشرفاء وتجدد حبسهم، فى الوقت الذى تترك فيه القتلة واللصوص الكبار يغادرون البلاد فى حفاوة وإعزاز، ولا تجرح مشاعرهم بكلمة واحدة عن جرائمهم الكبرى.. ما رأيكم فى مثقفى "الميكروباص"؟

*   *   *   *

الأدب الذى نريد

(١)

طوال القرن العشرين، كان السؤال المطروح من خلال المهمومين بالأدب العربى: ما الأدب الذى نريد؟

وأخذ هذا السؤال أشكالاً متنوعة ارتبطت بعملية الاحتكاك بالأدب الأجنبى عموماً، والغربى خصوصاً، تراوحت الإجابات وأخذت صوراً عديدة ما بين أدب رومانتيكى، وأدب واقعى، وأدب وجودى، وأدب رمزى، وأدب سيريالى، وأدب.... وبقدر تنوع النظريات الأدبية وتعددها كانت الإجابات التى طالعها القارئ العربى على مدى قرن من الزمان أو أكثر.

وواضح أن الإجابات على تنوعها وتعددها لم تلب حاجة القارئ العربى، بل القارئ الإسلامى على امتداد البلاد الإسلامية فى لغاتها المختلفة..

ويبدو أن الإجابات المطروحة أخفقت فى الوصول إلى ما يريده القارئ العربى خصوصاً، والإسلامى عموماً، لسبب بسيط، وهو عدم تعبيرها عن طبيعة الأدب الذى تحتاجه الأمة، فالأدب كما يقال بحق، مرآة الأمة، ليس بمعنى الانعكاس فحسب، لكن الانعكاس مضافاً إليه التصور الذى يجعل الوجود الإنسانى أكثر فطرية وحرية وعدالة ورقياً وجمالاً.. وهو ما لم يره العربى أو المسلم فى كثير من النصوص الأدبية التى اتخمت بها الكتب وصفحات الدوريات والصحف، وتم تشخيصها عبر وسائل الفنون المرئية والمسموعة.

وعلى مدى التاريخ فإن الأمم جعلت الأدب ميداناً لموضوعين رئيسيين، أولهما: المفاخرة بين الأمم بما تنتجه من أدب، وما تملكه من أدباء، شعراء وكتاب، ويقال إن بريطانيا العظمى فى عز سطوتها

الاستعمارية لم تفاخر بممتلكاتها التى لم تكن تغرب عنها الشمس، ولكنها كانت تفاخر بشاعرها المسرحى الأشهر، وليم شكسبير.

الآخر، هو استخدام الأدب بوصفه وسيلة غير مباشرة للتعبير عن هوية الأمة وأمجادها وتاريخها ورؤاها وتصوراتها، ويمكن أن نجد ذلك عند الإغريق والرومان وقدماء المصريين والصينيين والهنود والعرب وغيرهم، بل إن القبائل العربية بعد الإسلام نظرت إلى ماضيها الجاهلى لتكتشف مقدار ما تملكه من شعر مقارناً بغيرها من القبائل، وهنا نشأت ظاهرة ما يسمى بالانتحال فى الشعر العربى لتكثير موروث القبيلة من الشعر بوصفه مصدر عز وفخار ومجد.

الأدب إذاً عنصر رئيس فى النظام الحضارى للأمة، لا تستطيع أن تستغنى عنه، أو تعدّه أمراً هامشياً، حتى لو مرت عليها فترات خمول وانحدار..

(٢)

مر الأدب العربى بفترات ازدهار واضمحلال، وتوهج وركود، وحيوية وجمود، وعرف كبار الشعراء والأدباء الذين تجاوزت شهرتهم العالم العربى والإسلامى، إلى العالم كله، ولكن هذا لم يمنع أن يعيش الأدب العربى فترة من الركود والجمود بلغت الحضيض فى أواخر العهد العثمانى، لأسباب مختلفة لا مجال لتناولها فى هذا السياق.. ولكن أبرز معالم الأدب العربى فى هذه الفترة تمثلت فى سطحية الموضوعات وهامشيتها بالنسبة للواقع الاجتماعى والإنسانى، وركاكة التعبير وانحطاط اللغة التى جمعت بين العامية المبتذلة والفصحى المهجورة، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما نراه فى كتابى ابن إياس والجبرتى، مع

أنهما يحملان تأريخاً لفترة مهمة فى حياة أمتنا، ولكن صياغتهما جاءت ضعيفة للغاية..

مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادى، وتولى محمد على الحكم فى مصر والشام، وإرساله المبعوثين إلى بعض الدول الأوربية لدراسة العلوم والآداب واللغات، فقد بدأ عصر جديد بالنسبة للأدب العربى، حيث اطلع العرب على نماذج من الأدب الغربى فى ترجمة عربية، تختلف فى السياق والمضمون والصياغة اللغوية والأجناس الأدبية..

مرحلة الاتصال بالأدب الغربى كانت حاسمة، وكانت لها مضاعفاتها ونتائجها، وتأكدت هذه النتائج والمضاعفات بعد وصول طلائع الاستعمار المزمن إلى البلاد العربية، فسادت الفرنسية الجزائر وبلاد الشام بوجود القوات العسكرية، ومصر بحكم المبعوثين والقادمين من أجل التدريس أو الأعمال المصرفية أو التجارة أو غير ذلك. ودخلت إنجلترا باحتلال مصر مجال التنافس مع الثقافة الفرنسية.. ويمكن القول بإيجاز إن حركة التعليم فى مصر والشام والمغرب العربى قد خضعت لثقافة جديدة غازية، زحزحت الثقافة الإسلامية عن مكانها، إن لم يكن بالإزاحة الكاملة، فبالتصورات والرؤى، وهو ما صنع على امتداد القرن العشرين حتى اليوم نخباً تتحرك بالتصور الثقافى الغربى بطريقة غير إرادية، لأن هذا التصور صار حاكماً فى مجالات التعليم والإعلام والثقافة والسلوك والأزياء والعادات والتقاليد.. صحيح أن هناك مقاومة لهذا التصور، وهناك حركات إصلاحية إسلامية حاولت وتحاول- مع كل المعوقات والعقبات- أن تستعيد التصور الإسلامى، وترسخه فى الأذهان والعقول والنفوس، ولكن التصور الغربى، يبدو صاحب الغلبة حتى اليوم وخاصة فى المجال الثقافى، والمجال الأدبى على وجه أخص.

للإنصاف، فالاحتكاك بالتصور الغربى أعطى نتائج إيجابية وأخرى سلبية..

النتائج الإيجابية تتمثل فى التعرف على أجناس أدبية جديدة نشأت مع حركة النهضة الأوربية الحديثة أو تطورت فى سياقها، وتتمثل فى الرواية والقصة القصيرة والمسرحية النثرية والشعرية والمقالة والسيرة الذاتية وأدب الأطفال والأدب المقارن..

وقد استفاد الأدباء العرب منذ القرن العشرين بهذه الأجناس الأدبية من خلال التعريب أولاً، ثم من خلال التأصيل، وتوالت أجيال المؤسسين الرواد، والبناة الناضجين، والمجددين المتطورين. ويمكن القول إن الأدب العربى فى القرن العشرين امتلك تراثاً هائلاً فى هذه الأجناس، وبه نصوص كثيرة تتوفر فيها شروط الجودة الفنية والموضوعية.

ولا ريب أن كتابة الأجناس الجديدة التى تأصلت فى تربة الأدب العربى الحديث، قد أعطت مجالاً عريضاً للدخول إلى قضايا كبرى وموضوعات مهمة، كان من النادر أن يتطرق إليها الأدب العربى قبلاً وخاصة فى العصر العثمانى، فعالج الكتاب قضايا الفقر والجهل والمرض، ذلك الثالوث الذى ألح عليه الكتاب طويلاً فى قصصهم ومقالاتهم ومسرحياتهم، كما عالجوا قضايا الاستعمار والعلاقات مع الغرب والحرية والشورى والعدل والاهتمام بالعمل والزراعة والصناعة والحرف والعلاقات البشرية بين الرجل والمرأة وداخل الأسرة وداخل المجتمع...إلخ.

فى الوقت ذاته كانت حركة أخرى موازية تدعو إلى الاهتمام باللغة وتصويبها واستخدام الأساليب العربية السليمة، والتركيز على تأدية

المعنى والبعد عن التقعر والركاكة والزخرفة التى تثقل الكلام، لدرجة أن الإمام محمد عبده، وكان مشرفاً على قلم الصحافة، أنذر أصحاب الصحف وكتابها بالإغلاق وعدم ممارسة الكتابة إلا إذا أتقن الصحفيون والكتاب اللغة العربية نحواً وصرفاً وأسلوباً.

وظهرت مدرسة من الموهوبين فى الأساليب والصياغة سميت "مدرسة البيان"، وكان أصحابها يقتربون فى صياغتهم من الشعر، وكان على رأسها المنفلوطى والرافعى والبشرى والزيات وقد أحدثت هذه المدرسة إضافة عظيمة للأساليب انعكست على كبار الكتاب والشعراء فى القرن العشرين، وقد تناولتها تفصيلاً فى أحد كتبى.

فى مقابل هذه الإيجابيات فإن فريقاً لا يستهان به من النخب التى انحازت للثقافة الغربية استباح لنفسه أن يعبر عن القضايا القومية والوطنية والاجتماعية والفكرية من خلال منظور غربى، غريب بصفة عامة عن ثقافتنا وطبيعتنا وظروفنا، وراح نفر منه، ينقل النظريات الأجنبية نقلاً حرفياً لا يتناسب مع واقعنا ولا ينسجم معه، فبدا ما يكتبونه دعوة لواقع أخر وتعبيراً عنه، وانطلاقاً منه، وهو ما جعل كثيراً من نصوصهم لا تلقى تجاوباً من الجمهور، بل أخذت تبعده عن الأدب والأدباء، وصار ما يقدمونه للناس "جيتو" معزولاً لا يقربه أحد، اللهم إلا من يكتبونه ومن على شاكلتهم.

فى الإطار ذاته رأينا من يروج من خلال الأدب العربى إلى نظرية الصراع الطبقى، وقد لقيت هذه النظرية رواجاً كبيراً فى فترة الخمسينيات والستينيات بسبب وجود أحزاب وهيئات حاكمة تبنتها وسيطرت على وسائل النشر والتوصيل الأدبى.. وصار الأدب فى أغلبه مجرد منشورات زاعقة، تهتف للنظرية وأصحابها ومستورديها.. وبالتالى تراجع الأدب

المعبر تعبيراً حقيقياً عن هموم الأمة وهويتها.. وخفت الصوت الإسلامى فى الأدب تصوراً وتحققاً، خفوتاً ملحوظاً، فالشعراء والكتاب فى معظمهم وقفوا من الرؤية الإسلامية الصافية موقفاً غريباً، وعجيباً، انتهى إلى العداء فى كثير من الأحيان.

رافق كل ذلك استهانة بالقيم الفنية فى الأدب العربى، فقد راح فرقاء عديدون، يروجون للعاميات المحلية، ويبعثون اللغات العرقية القديمة التى صهرها الإسلام فى إطار اللغة العربية، تحت دعاوى الواقعية، والوطنية، وكان بعضهم جريئاً فى الإعلان عن عدائه للغة العربية بوصفها لغة مستعمرين غزاة!! بالإضافة إلى أن عدداً لا يستهان من أدباء المغرب العربى الذى وقع تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى، آثر الكتابة بالفرنسية، بوصفها اللغة السائدة والأكثر انتشاراً بين المواطنين، وما زالت الصحف الرئيسية فى الجزائر والمغرب وتونس تصدر باللغة الفرنسية، حيث يتعامل بها الناس فى المدارس والجامعات والبنوك والمؤسسات والهيئات والوزارات والشوارع!

وقد تطرف بعض الموالين للتصور الغربى ثقافياً، فى الاستهانة بقواعد الشعر العربى الذى يعد فن العربية الأول، وبعد أن بدا لفريق إلغاء القافية، وعدم الاعتداء بالشطرين، جاء فريق آخر، رفض الوزن والقافية جميعاً، وأنشأ ما يسمى "بقصيدة النثر"، وقد وقفت جهات عديدة وراء هذا التطور الخطير الذى لم يلق استجابة من كثير من النقاد الجادين بسبب غموضه، وسيرياليته، ومعالجته لقضايا تافهة، وتعبيره عن رؤى غير مقبولة فى كثير من الأحايين، وابتعاده عن واقع الأمة بصفة عامة.

(٣)

ولعلنا من هذا العرض عرفنا حقاً ما الأدب الذى نريده؟

إن الأدب الذى نريده هو الأدب الراقى الجميل الذى يحمل الإنسان عامة والعربى المسلم خاصة فى حناياه، ويدافع عنه ويسمو به فى إطار من الأداء الفنى المتقن الشائق، الذى يحبب الأدب إلى قارئه.

ولعل هذا ما جعل الدعوة إلى "الأدب الإسلامى" تأتى رد فعل طبيعياً على سلبيات الأدب الراهن فى البلاد العربية والإسلامية، فهى دعوة للانطلاق نحو آفاق إنسانية أرحب للأدب، تتجاوز السلبيات القائمة فى الحقل الأدبى، سواء كانت موضوعية أو فنية، وفى الوقت ذاته تعيد للتصور الإسلامى أو الهوية الإسلامية وجودها الفاعل والمبدع فى محيط البناء الثقافى للأمة.

لقد شهدت العقود الأخيرة نماذج أدبية لا تكتفى بالتصورات الأجنبية المعادية للأمة وقيمها وأخلاقها، بل تدخل إلى المناطق التى تجرح مشاعر المسلمين وعواطفهم، فضلاً عن عقائدهم، وصارت هناك جماعات تملك الهيمنة على وسائط النشر والتعبير، لا تجد غضاضة، بل تحبذ التجديف فى الذات الإلهية والإلحاح على المسائل الإباحية، وتزعم بعدئذ أن ذلك إبداع أو فن له منطقه وله مواصفاته التى يجب أن (يحترمها) الناس وألا يتدخلوا فيها!! بل إن القوم أمعنوا فى فرض آرائهم العدوانية بنشر نصوص صادمة للمجتمع بأموال المجتمع ومؤسسات المجتمع الثقافية، فى ظل ظروف، استثنائية تعيشها بعض العواصم العربية!

ولا شك أن الأدب الذى نريده يرفض التجديف والإباحية، كما يرفض القضايا الهامشية التافهة التى لا تسمو بالإنسان ولا ترقى به، إن الإنسان العربى فى طور مرحلة حرجة حيث يعيش تحت مطرقة

الأطمـاع الاسـتعمارية الخارجيـة، وسـندان الأميـة والتخلـف والبطالـة والفساد الاقتصادى والإدارى والاجتماعى، والضعف العسكرى والسياسى والخوار الثقافى والمعرفى.. وكل هذا وغيره، يفرض على الأديب العربى المسلم أن يفرغ لمواجهته ومعالجته وكشف السبل التى تجعل أفراد الأمة قادرين على العمل الإيجابى الذى يضىء الواقع، ويصنع المستقبل، ويبنى أمة تملك إرادتها وتحقق العدل والمساواة والكرامة والشورى بين أبنائها.

إن الأديـب العربـى المسـلم أمامـه المجـال مفتـوح ليتنـاول كـل الموضوعات الإنسانية شريطة أن تأتى فى إطار التصور الإسلامى، الذى ينتصر للخير ويرفض الشر، ويدعم القدرة على مقاومة هذا الشر داخل الإنسان.. ولا يعتقدن أحد أننا نريد من الأديب أن يصور العربى المسلم "سوبرمان"، قاهراً لا يغلب، لكن إنساناً يتعثر ويقوم، يضعف ويقوى، يخطئ ويصيب...

ثمة أمر آخر لا بد أن يتوفر فى الأدب، وهو أن يتمتع الأديب بالموهبة الحقيقية المدعومة بالتجربة الإنسانية العميقة. الأدب ليس مجرد لعبة لفظية للتسلية التى يزول أثرها بعد قراءتها أو سماعها. إنها تركيب فنى معقد، يعبر عن تجربة ذات أبعاد إنسانية عميقة، تستحق البقاء والخلود فى وجدان الناس. لذا فإن أصحاب المواهب الضحلة والتجارب السطحية، لا يمكنهم أن يقدموا أدباً ذا قيمة أو فنا ذا منفعة، لأن الأدب أو الفن فى أيامنا، مع كل الدعاوى الفارغة التى تحاول أن تفصله عن الحياة، يحمل رسالة تعبر عن أصحابها ورؤاهم وتصوراتهم، شاءوا أم أبوا.

إن الأدب الذى نريده ينبغى أن يأتى فى سياق متقن لغوياً وفنياً، والذين يتصورون أن النيّات الطيبة تكفى فى هذا السياق؛ واهمون.. لأن النيّات الطيبة لا تصنع أدباً أو فناً.

والإتقان اللغوى والفنى يقتضى المعرفة الجيدة باللغة الفصحى ودلالاتها وتركيباتها، والتعرف على أساليبها وصياغاتها، كما يقتضى التعرف على طرق البناء الفنى للأجناس الأدبية المختلفة شعراً ونثرا، وتقديم النص الأدبى فى صورة شائقة جاذبة تعطيه الحيوية والاستمرارية.

* * * *

سنوياً فى معرض الكتاب:
كتاب السلطة.. يموتون نفاقاً!

عندما يعبر شخص فى مصر عن حبه لشخص آخر، يقول له: أموت فيك! الموت هنا تعبير عن شدة الحب، وقد يكون المقصود أموت فداء لك! ولكن أحداً لا يعرف على وجه التحديد لماذا ارتبط الحب بالموت، مع أن الأول يعنى الحركة والحياة، والثانى يعنى السكون والعدم!

من هنا، نستطيع أن نقول، إن كتاب السلطة يموتون نفاقاً فيها، ليس لأنها تعبر عن اتجاهاتهم الفكرية والحزبية، أو لأنها صادفت هوى فى نفوسهم بما يتسق مع طموحاتهم ورغباتهم السياسية، بل لأنها حققت مصالحهم المادية والمعنوية. وبالتأكيد فإن كل سلطة تصعد إلى قمة الدولة، أياً كان مستواها، لا بد أن تصادف هوى فى نفوس كتابنا الكبار والصغار، من منطلق تحقيق المصالح المادية والمعنوية لهم.. غضب الناس، لأن كاتب أغان سأل الرئيس مبارك فى لقائه بالكتاب فى معرض الكتاب عن موقف الدولة من تجاوزات بعض الصحف الحزبية والمستقلة. كان كاتب الأغانى الذى يشغل منصباً إعلامياً أو دعائياً مرموقاً فى الدولة يقصد بسؤاله معرفة الطريقة التى ستعاقب بها السلطة الصحف التى تجاوزت الحدود وتعرضت لبعض الأفراد والمؤسسات بالنقد والهجوم. وأدرك الرئيس أن السؤال ليس بريئاً، فرد على صاحبه بأن الذى يتضرر من الصحافة عليه أن يلجأ إلى القضاء، لأن السلطات لا تتدخل فى مثل هذه الأمور. وقد لقيت الإجابة ارتياحاً كبيراً، لأن هدف السؤال- أياً كانت نيّة صاحبه- تقييد الحرية الصحفية

بمزيد من الأغلال والمحظورات، وقهر الأقلام الحرة التى تعالج الأخطاء والخطايا بشجاعة ووضوح!

مشكلة كتاب السلطة، وخاصة فى نصف القرن الماضى، أن همومهم الخاصة تسبق الهموم العامة، وأن مصالحهم الذاتية تسبق مصالح الأمة. لذا كان أمراً طبيعياً للغاية أن يكون الكاتب ابناً لكل سلطة، وخادماً لها، بصرف النظر عن هويتها ومنهجها الفكرى ومشروعها العام، فلا بأس أن يكون ملكياً إذا كان النظام ملكياً، وثورياً إذا كانت الهيمنة للثوريين، واشتراكياً إذا كان التوجه الحكومى اشتراكياً، وانفتاحياً رأسمالياً إذا كان التيار الحاكم مؤيداً للانفتاح الرأسمالى، وأزيد على ذلك- وأنا زعيم- بأنه إذا أتيح لشارون- لا قدر الله- أن يكون حاكماً مهيمناً؛ فيكون هذا الكاتب نفسه، من المتيمين بشارون المسبحين بحمده، المتغزلين فى فلسفته ومنهجه وأخلاقه وبطولاته وعبقريته!

لا غضاضة لدى كاتب السلطة فى التحول من فكر إلى آخر، ومن تسويغ الأمر ونقيضه، ومن المدح الآن ثم الانقضاض بالقدح بعد قليل. الوقائع كثيرة، والأمثلة ماثلة للعيان، ولا تحتاج إلى شرح أو بيان، إذ إن فلسفة كاتب السلطة هى: أحينى اليوم وأمتنى غداً، وعليه فلا مجال للقيم الشريفة التى تقوم على الاختيار الحر، والعقيدة الصحيحة، والإيمان الخالص، إنه يؤيد الحكم طالما ظل مهيمناً ومعطاءً، أما إذا ذهب، وضاع الرجاء، فلماذا التمسك به أو الدفاع عنه، بل لماذا لا يصليه ناراً ويوقد تحته ناراً؟ ألم يفقد قوته وجبروته وذهبه وفضته؟

إن كاتب السلطة ثعلب ذكى للغاية، يعرف كيف يأكل حتى يملأ بطنه، ثم يبشم فلا يستطيع أن يتحرك يميناً وشمالاً، وعنده من الأسباب والحيثيات، ما يفسر به الأكل وملء البطن والبشم. أليس ذكيا؟

يحظى كاتب السلطة بالعز لا العزة، فهو المقرب من المسئولين الحكوميين والحزبيين، وهو الذى يقول ما يحبون قوله، وهو الذى يردد آراءهم وأفكارهم وتصوراتهم قبل أن يرددوها، وهو بعد ذلك وقبله، يضفى عليهم من صفات العبقرية والذكاء والإخلاص والإيمان والفروسية والشجاعة، ما يفوق غيرهم ويتجاوزهم.. بعضهم يدفعه ذكاؤه أحياناً إلى أن يمثل دور المناضل الذى يعارض السلطة، فيثير قضية هامشية لا قيمة لها- وقد يكون ذلك باتفاق مع بعض الجهات الرسمية- ويبدو فى الاتجاه المضاد لاتجاه السلطة، ليوحى للناس أنه يعمل بوحى من ضميره. ولكن الناس تعلم جيداً القلم الصادق الذى يمتلئ بمداد طاهر، من القلم الذى لم يعرف الوضوء طوال حياته، ولم يغتسل أبداً!!

إن كاتب السلطة تعود على ملء بطنه حتى التخمة. وبعضهم لا يعرف بالضبط قيمة رصيده فى البنك. يقوم مساعدوه أو المقربون منه بالإيداع فى حسابه عطايا أهل السلطة، وهى متعددة ومتنوعة وممتدة. وليست بالضرورة نظير جهد حقيقى، ولكنها نظير موقف ارتضته السلطة، وكفى! وبناء عليه فستجد كاتب السلطة حاضراً أمامك- أنت المواطن التعيس أبداً- على شاشة التلفزيون، وعبر أثير الإذاعات، وفوق أعمدة الصحف، وعلى منبر الندوات والمحاضرات والمناظرات، وفى المناسبات القومية والاجتماعية والوطنية، كما وجدته وستجده دائماً فى معرض الكتاب، يردد ما لم يطلب منه، ويطالب بالمزيد من القيود ومصادرة الحريات. لو فعل غير هذا كان ظالماً لنفسه، ولحسابه فى

البنك والحياة، لأنه لن يزيد مليماً واحداً، ولن يدعى أبداً إلى هذه المناسبة أو تلك، ولن يكون فى كل الأحوال حاضراً أمام الجمهور! ولن يحظى بجائزة التفوق والتقدير من السلطة ومعرض كتابها!

هل عرفنا الآن سر إقصاء الكتاب الأحرار؟ هل عرفنا لماذا يعيشون فى ظل الحصار، ويرحلون فى صمت القبور؟

قد يكون موقف كاتب السلطة مفهوماً إذا كان حزبه الذى يعبر عن فكره هو الذى يحكم. ولكن ما العمل إذا كان موقفه واحداً لا يتغير مهما تغيرت السلطة، وهو الموت نفاقاً فى حبها؟ هل نستدعى بيت نزار قبانى:

وإذا المفكر أصبح بوقاً   يستوى الفكر عنده والحذاء!؟

نعم نستدعيه.. وبكل قوة!

* * * *

المتنبى.. وشوقى

أقدم لكم طبيباً أديباً، يعمل فى صمت بجد وتأن وإتقان.

هو طبيب محترف، تخصصه دقيق ومهم، وهو جراحة المسالك البولية.

وهو أديب هاو، يبحث ويكتب وفقاً لمعتقده ورؤيته وتصوره، دون أن يعبأ بالتيارات السائدة، أو مجاراتها.. بل إنه أحياناً يسبح ضدها حين يراها غير ناضجة أو غير مستقيمة، أو منافية للحقيقة.

إن الدكتور "مصطفى الرفاعى" أستاذ الجراحة بطب الإسكندرية، هو الذى تصدى بصبر جميل، وإصرار عظيم، ليحقق ديوان شوقى، ويخرجه للناس، فى صورته الصحيحة الكاملة، بعد أن امتدت إليه يد العبث، لتحذف قصيدة هنا، وأبياتاً هناك، استجابة لداعى التغييرات السياسية التى جرت فى مصر عقب ١٩٥٢م، أو نفاقاً لبعض الجهات وتقرباً إليها.. وكانت "الشوقيات الصحيحة" وقفة جادة فى فترة صعبة تعلن الالتزام بالحقيقة العلمية، بغض النظر عن أيّة "اعتبارات"!

لقد أعاد الرجل إلى "شوقى" شعره الضائع، الذى ضيعه بعض الناس فى غيبة من الضمير العلمى والأدبى، ولم يكتف بذلك، بل احتشد لتناول جوانب عديدة فى حياة شوقى وشعره، ثم قام بالموازنة بين "شوقى والمتنبى" فى جوانب متشابهة أو متخالفة، وطرح من خلال الموازنة آراء جديدة جديرة بالاهتمام والوقوف عندها.

وللرجل إنتاج أدبى متنوع، يتناول التاريخ والأدب فى دراسات متعمقة ومقالات متعددة، كما انعطف بحكم تخصصه المهنى فى الطب والجراحة إلى عقد مجموعة من الفصول فى تاريخ الطب والحضارة الإسلامية وما أحرزته من نجاحات فى العلوم التجريبية.

وفى كتابه "المتنبى وشوقى"- منشأة المعارف بالإسكندرية، ٣٥٤ صفحة، قطع كبير- يظهر منهجه العلمى الدقيق، وربط الأسباب بالنتائج، وجلاء صورة الشخصيتين موضوع الكتاب وهما: المتنبى وشوقى. حيث يخلص إلى أنهما عبقريتان بينهما ألف عام وآلاف الشعراء، وأميرا شعراء العربية بلا منازع، وقد نشآ فى فترتين من أزهى عصور الأدب والمعرفة التى عرفتها الأمة الإسلامية (القرن الرابع، والقرن الرابع عشر الهجريين).

ويوازن الدكتور الرفاعى بين حياة كل من المتنبى وشوقى، وعصريهما، كما يوازن بين شعرهما من حيث الأغراض المختلفة: الدين والأخلاق، والوصف، والفخر، والمدح، والرثاء، والمرأة، والسيف والقلم، والفكاهة والحكمة، ثم يتوقف عند موقف النقاد من كل منهما، وخاصة الموقف المتحامل والمتجنى..

ويبدو من الموازنة أن نقاط الالتقاء بين المتنبى وشوقى كثيرة، وخاصة فى مجال الموهبة والفن وظروف الحياة والسلوك الإنسانى لكل منهما، فعلى سبيل المثال كان عصر المتنبى مليئاً بالاضطراب والفتن (القرن الرابع الهجرى، تحت الحكم العباسى)، وكان عصر شوقى عصر اضطراب أيضاً، بعد فشل الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م، واحتلال الإنجليز لمصر، ثم إعلان الحماية البريطانية عليها، كما انهارت الخلافة الإسلامية العثمانية، وسقطت الدول العربية والإسلامية تحت نير الاحتلال.

وكما كان عصر المتنبى من عصور الأدب الزاخرة- كما يقول المؤلف- فقد كانت هناك أيضاً نهضة أدبية رفيعة فى الوطن العربى فى عصر شوقى، فظهر البارودى وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وبشارة

الخورى والمويلحى والمنفلوطى والزّيات وطه حسين والرافعى والعقاد وغيرهم.. وهذا ما جعل المتنبى وشوقى على قمة عصريهما، وفاقت شهرتهما آفاق الدول الإسلامية، وكتبت عنهما عشرات الكتب ومئات الدراسات على مر السنين.

وكلاهما كان يعتد بنفسه ويستمسك برأيه ويدافع عنه، ومن أجل ذلك ذاق المتنبى مرارة السجن ورحل عن وطنه إلى مصر. أما شوقى فقد نفى إلى الأندلس (إسبانيا)...

بيد أن الشاعرين اختلفا فى بعض جوانب الحياة، فقد نشأ المتنبى فقيراً محتاجاً، وكان أبوه سقاء يسقى الناس، وهى مهنة متواضعة، كانت سبباً لمعايرة المتنبى فيما بعد، وهو ما جعله لا يفخر بأسرته ولا بقومه:

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى   وبنفسى فخرت لا بجدودى

أما شوقى فكان على العكس يفخر بجدوده، وكان ثرياً، عاش فى بحبوحة من العيش، ولم يكن فى حاجة للعمل، وكان أهله من علية القوم وأثريائهم.

ثمة اختلاف آخر يتمثل فى موقف الشاعرين من الدين، فالمتنبى كان يبدو غير مبال بالدين، بل يبدو ملحداً كما يرى البعض؛ وهو ما ينفى عنه تهمة التنبؤ أو زعم النبوة، أما شوقى فقد كان عميق الإيمان، وإن لم يكن شديد التدين، وقد عبرت قصائد كثيرة له عن عاطفته الإسلامية القوية.

لقد هوجم المتنبى وشوقى هجوماً عنيفاً من بعض النقاد. ويرى المؤلف أن هذا الهجوم هو الضريبة التى يدفعها العباقرة. فقد هوجم

المتنبى من قبل أبى فراس الحمدانى، وابن خالويه، والصاحب بن عباد، وأبى هلال العسكرى، والحاتمى، وعبدالرحمن صدقى.

وهوجم شوقى من العقاد والمازنى ومندور وشوقى ضيف، بيد أن المؤلف يتصدى لمهاجمى الشاعرين، ويستشهد بالآراء المنصفة لكل منهما، سواء فى عصرهما أو بعده، أو كما يقول: "وتمر السنون وتتوالى الأحقاب، وتفنى الأوهام، وتبقى الحقيقة كالشمس الساطعة، ويظل المتنبى إماماً، ويظل شوقى أميراً لشعراء العربية، خالدين خلود الدهر".

وقد خصص المؤلف صفحات لكل من الشاعرين فى ضمير الشعراء، وسجل مجموعة من القصائد التى أشادت بهما، وأعلت من قدرهما، وعبرت عن قيمتها المستمرة. يقول الجارم فى رثاء شوقى:

ورثاء البيان جهد مقل ... للذى خلق الزمان بيانه

وبيان الرجلين خلده الزمان بدليل ما نراه من دراسات، وقراءات مستمرة، لا تتوقف.

* * * *

سيد قطب والأدب

تعد تجربة "سيد قطب" الحياتية والفكرية والأدبية؛ من التجارب الخصبة العميقة، التى تشد إليها النقاد والباحثين سعياً لتجلية جوانبها وفهم أبعادها وتوضيح مكنونها. وقد حظيت هذه التجربة بالعديد من الدراسات والأبحاث التى نشرت على الناس منذ رحيله عن دنيانا عام ١٩٦٥ حتى اليوم، وما زال الكثيرون يبحثون ويكتبون ويقلبون فى إنتاجه الفكرى والأدبى لإضاءة زوايا مختلفة فيه.

ويقدم "على شلش"- يرحمه الله- فى كتابه "التمرد على الأدب: دراسة فى تجربة سيد قطب"، إضاءة جديدة لزاوية معينة فى مسيرة سيد قطب، وهى انتقاله من الاهتمام بالأدب إبداعاً ودراسة إلى مجال الدعوة الإسلامية تنظيراً وممارسة. وكما يتضح من عنوان الدراسة، فإن انتقال سيد قطب، إضاءة جديدة لزاوية معينة فى مسيرة سيد قطب، وهى انتقاله من الاهتمام بالأدب إبداعاً ودراسة إلى مجال الدعوة الإسلامية تنظيراً وممارسة. وكما يتضح من عنوان الدراسة، فإن انتقال سيد قطب من المجال الأدبى إلى المجال الدعوى، يبدو تمرداً على السياق الأدبى الذى كان سائراً فيه، وانتقالاً من مجال إلى آخر مغاير، وكأن الأدب مقطوع الصلة بالدين، وإن كانت الحقيقة تؤكد وجود الصلة بينهما حتى لو بدت فى بعض الأحيان متغايرة. بيد أن العنوان الفرعى، يجعل من الدراسة محاولة من نوع ما لتقويم تجربة سيد قطب الأدبية والفكرية، وهو بالفعل ما تضمنته الدراسة بدءاً من أول صفحة إلى آخر صفحة.

فى بداية الدراسة يشرح "على شلش" مفهوم تمرد سيد قطب على الأدب مع أنه كتب القصص والروايات والمقالات النقد الأدبى، وأنتج إنتاجاً غزيراً فى هذا المجال، ثم تمرد وتفرغ للكتابة فى شئون الإسلام،

ويرى أن التمرد عمل إرادى واع إلى حد كبير، فى حين أن الأدب ذاته لا تتدخل فى اختياره الإرادة الواعية كثيراً إلا فى مراحل وأشكال معينة، مثل مرحلة المراجعة وشكلى المقال والمسرحية.

أيضاً، فإن التمرد- كما يقول شلش- نتاج ظروف وعوامل تختلف من حالة إلى حالة، ومن شخص إلى آخر، وهناك أمثلة عديدة على ذلك فى الأدب العربى والأدب الأجنبى على السواء. ففى الأدب العربى هناك مثلاً محمد المويلحى (ت ١٩٣٠)، والشاعر الشهير عبدالرحمن شكرى والروائى عادل كامل. وفى الأدب الأجنبى هناك الشاعر الفرنسى آرثر رامبو (١٨٥٤- ١٨٩١) وبول فاليرى (١٨٧١- ١٩٤٥).

ثم تطرح الدراسة تساؤلات وتفسيرات متعددة حول عملية التمرد على الأدب والتحول عنه، على أساس أن التمرد لا ينشأ عن سبب واحد، بل عن مجموعة من الأسباب يكون من بينها سبب واحد بارز. ومن التساؤلات التى طرحتها الدراسة، هل كان التمرد على النسبى المتغير، وهو الأدب، درجة فى سلم طلب الاتحاد بالمطلق الثابت، وهو الخالق الواجد؟ هل كان سعياً وراء حقائق عليا لم يساعده عليها الأدب؟

من بين الأسباب التى ألحت عليها الدراسة، وجعلتها المحور الذى دار عليه تحول سيد قطب عن الأدب، صمت المؤسسة الأدبية أو الحكومة الأدبية- كما يسميها على شلش- عن الاعتراف بجهود سيد قطب فى الميدان الأدبى، خاصة أنه أخلص لهذه الحكومة أو المؤسسة الأدبية، وكتب عن أعلامها، وعرض لإنتاجهم الأدبى والفكرى، وكان تلميذاً مطيعاً للعقاد ومدافعاً عنه ضد تلاميذ الرافعى، ولكن أعضاء هذه الحكومة (العقاد- طه حسين- أحمد أمين- الزيات) لم يكتبوا عنه كلمة واحدة، وإن أشادوا به شفهياً، باستثناء كلمة كتبها "توفيق الحكيم" فى

"أخبار اليوم"، وأخرى كتبها "نجيب محفوظ" الذى يعد من جيله ولا ينتمى إلى المؤسسة الأدبية. وما كتبه الحكيم ومحفوظ، مع أنه ثناء كبير واعتراف واضح بقيمة سيد قطب الأدبية، فإنه ما كان يغنى سيد قطب عن كلمة مسهبة يكتبها العقاد أو طه حسين أو أحمد أمين أو الزيات (يلاحظ أن الأخير كان يترك افتتاحية الرسالة على أهميتها لسيد قطب كى يحل محله فى كتابتها).

ومع أن الأقرب إلى الصواب فى تفسير التفرغ للشئون الإسلامية يعود إلى غاية فكرية أكثر منه غضباً على الحكومة الأدبية؛ فإن الدراسة تسهب فى الحديث عن هذا الغضب وتعطيه الأولوية، وكأن الرجل- كما يبدو من الدراسة- يعنيه المجد الشخصى أكثر من القضية العامة، التى دفع حياته ثمناً لها.

صحيح أن البشر يحتاجون فى الغالب إلى كلمة طيبة تشبع أشواقهم إلى التقدير والثناء، وسيد قطب، ليس بدعاً فى ذلك، ولكن الصحيح أن من تشغله قضية عامة ليس فى حاجة إلى الجحود والنكران كى يتحول إليها ويتفرغ لها.

إن دراسة فكرة التحول عن الأدب لدى سيد قطب- تأخذ مسارها الصحيح عندما توضع فى سياق التطور الفكرى للرجل، وهو أمر- فيما أعلم- لم ينتبه إليه كثير من الدارسين لإنتاج سيد قطب وحياته التى كانت انعكاساً لهذا الإنتاج.

لقد شغلته القضايا العامة إلى درجة أثرت على حياته الشخصية فلم يتزوج أو ينجب مثل بقية أقرانه، وكانت معظم كتاباته الأدبية فى المرحلة السابقة على المرحلة الإسلامية تفيض انشغالاً بالهموم العامة،

حتى رسائله الشخصية التى أوردها على شلش فى ملاحق دراسته، تخبرنا أن الرجل لا يعيش لنفسه كما يعيش الآخرون.

وإذا عرفنا أن الرجل كان يبدو أحياناً فى المرحلة الأدبية مشدوداً إلى النظرية الاشتراكية ومتأثراً بها - كما يبدو أحياناً - فى بعض المواضع على صفحات كتابه العدالة الاجتماعية فى الإسلام، أدركنا أن الاختيار الإسلامى، يعود إلى موقف فكرى أكثر منه موقفاً شخصياً دفعت إليه الحكومة الأدبية أو المؤسسة الأدبية فى الأربعينيات.

ومهما يكن من أمر، فإن تجلية العلاقة الشخصية بين سيد قطب وأعضاء الحكومة الأدبية، تعد إضافة جيدة إلى الدراسات التى تناولت حياته، وفكره، وأدبه، أيضاً فإن وقوف الدراسة عند التجربة الأدبية لسيد قطب، وإلقاء الأضواء عليها عمل مهم من الناحية التقويمية والنقدية..

لقد وقفت الدراسة عند الإنتاج الأدبى شعراً ومقالة وقصة ورواية وسيرة ذاتية ونقداً أدبياً، وأدب طفل، وأدب رحلة، وأعطت صورة مركزة عن كل نوع من هذه الأنواع، مع حكم عام يتأسس على هذه الصورة المركزة..

فترى الدراسة أن سيد قطب يبدو شاعراً غنائياً أجود منه شاعراً تأملياً مفكراً، فقد عاش شبابه كالكهل، ولم ينطلق مثلما ينطلق الشباب، ولا طاش كما يطيش. ولعل الدراسة تقصد بالشاعر الغنائى من يتناول قضايا العاطفة والوجدان، لأن مفهوم الغنائية فى الشعر يقابل المفهوم الملحمى والمسرحى، ولا يقابل المفهوم العقلانى والفكرى، وبذا يكون حكم الدراسة منسجماً مع جودة الشعر العاطفى والوجدانى.

وترى الدراسة أن مقالات سيد قطب أشبه بالملعب الحر للخواطر المرسلة التى تزحم ذهنه وهو يكتب، دخلت من الأسلوب البيانى المتميز

الذى نجده عند طه حسين أو أحمد حسن الزيات، ومن هذه الناحية لا يعد قطب من أصحاب الأساليب المعتنى بها فى أدبنا المعاصر، ولا من أصحاب الأناقة فى التعبير كتلميذه أنور المعداوى. ولكنه كان من أنصار الوضوح والبساطة.

وهذا حكم عام يحتاج إلى مراجعة ذلك أن "سيد قطب" من أصحاب الأساليب المتميزة الدقيقة، وقد سطع البيان فى أسلوبه منذ كتب "التصوير الفنى فى القرآن الكريم"، ووصل إلى ذروة البيان فى تفسيره العظيم "فى ظلال القرآن"، ولا ريب أن من يقرأ هذا التفسير سيجد أسلوباً مشبعاً بالتصوير والتنسيق، مما يقترب به من أسلوب "الرافعى" يرحمه الله.

وتشير الدراسة إلى الصورة القصصية عند سيد قطب، إشارة سريعة، وهذا الشكل الفنى قريب من الخاطرة ولكنه يرتكز على عنصر الحكاية والسرد القصصى، لا على الأفكار المرسلة. وإنتاج سيد قطب فى هذا الشكل قليل لم يتجاوز أربع صور، وتركه سريعاً فى وقت مبكر من حياته.

وتتوقف الدراسة طويلاً عند النقد الأدبى لدى سيد قطب، وتتناوله من أربع زوايا هى: نظرية الأدب، والنقد التطبيقى، والمعارك، والمصطلحات.. وفى مجال النظرية تركز الدراسة على رأى سيد قطب فى مهمة الشاعر ودوره فى الحياة، ورواية الرجل للشعراء المقلدين ونظرائهم المحدثين، ويجمل الباحث رأيه فى أن سيد قطب جمع بين التصور الرومانتيكى والتصّور الواقعى فى نظرية الأدب مترسماً خطا العقاد وطه حسين والمازنى.

وفى هذا السياق فإن سيد قطب وسع نظرية الأدب لديه، ليتحدث عن أهمية الألفاظ ودلالتها على المعانى، وأهمية النقد ذاته بوصفه عملاً مكملاً للإبداع، فكتب العديد من المقالات فى هذا الإطار. وأصدر كتاباً كاملاً عن أصول النقد ومناهجه، وانتهى إلى تحبيذ المنهج التكاملى فى النقد الذى يشمل مزيجاً من النقد الجمالى والنفسى والتاريخى والاجتماعى، لأنه أقرب المناهج فى تصوره إلى طبيعة العمل الأدبى، مع تنبيهه إلى أن المناهج النقدية مفيدة إذا كانت منارات ومعالم، وضارة إذا إلى تحولت إلى قيود وحدود.

فى مجال النقد التطبيقى، برز نشاط "سيد قطب" واضحاً، ويعده الباحث من أنشط النقاد فى زمانه (الأربعينيات) إن لم يكن أنشطهم جميعاً.

وتشير الدراسة إلى معارك "سيد قطب" الأربع: ضد أحمد زكى زكى أبى شادى وإسماعيل مظهر وآخرين عام ١٩٣٤، وضد أنصار الرافعى عام ١٩٣٨، وكلتاهما دفاعاً عن العقاد. وضد محمد مندور حول الأدب المهموس عام ١٩٤٣، وضد صلاح ذهنى حول محمود تيمور ونجيب محفوظ عام ١٩٤٤، وهى معارك أثارت فى حينه كثيراً من الحيوية على صفحات الصحف والمجلات التى تبنتها، وحركت بعض الركود فى الحياة الأدبية.

وقد استخدم سيد قطب العديد من المصطلحات فى كتاباته النقدية من قبيل الخيال الشعرى، والحساسية الشعرية، وتناسق الخيال، الشعر الصحراوى (ما قيل فى البادية ولو لم يكن جاهليا)، التعبير الشعرى، والتعبير النثرى، الإحساس النفسى أو التأثر الوجدانى، شعراء العاطفة، الحقيقة الشعورية، الصور والظلال، المساحة النفسية للتعبير، الحركة

الحسية، الحركة الشعورية، المؤثر، الاستجابة، ملكة التنسيق الفنى، القيم الشعورية، القيم التعبيرية...الخ، وبعض هذه المصطلحات مستعار من عصره مباشرة، وبعضها من توليده وابتكاره، مما يجعله ناقداً مجتهداً ومجدداً.

وتصنف الدراسة كتاب "سيد قطب" الذى يحمل عنوان "طفل فى القرية" ضمن كتب "السيرة الذاتية"، وتعده نتاج إعجاب بكتاب الأيام لطه حسين، وهذا ما يكشف عنه الإهداء الذى توجه به إلى طه حسين على صدر كتابه، ثم ما قاله فى المقدمة عنه من كونه صوراً من حياة القرية "عاصرت طفولتى منذ ربع قرن من الزمان..".

فى مجال الرواية، تتناول الدراسة رواية "المدينة المسحورة" التى نشرها "سيد قطب" فى سلسلة "اقرأ" التى تصدرها دار المعارف، وروايته "أشواك"، وهما من الروايات القصيرة، وتختلفان شكلاً وموضوعاً.

ومن الأنواع الأدبية التى عالجها "سيد قطب" الكتابة للطفل، وقد اشترك فى الكتابة للطفل مع أمينة السعيد ويوسف مراد فى تجربة قامت بها دار المعارف، وأثمرت ثلاثة كتب صغيرة. كما شارك عبدالحميد جودة السحار فى سلسلة "قصص الأنبياء"، بالإضافة إلى مشاركة آخرين فى تأليف بعض الكتب المدرسية.

وآخر أنواع الكتابة الأدبية التى اهتم بها سيد قطب "أدب الرحلة"، وكانت رحلته الوحيدة إلى الولايات الأمريكية المتحدة، موضوع هذا النوع الأدبى العربى، ومع ذلك لم يكتب فيه كثيراً، ولم يسجل من مشاهداته وتجاربه الأمريكية إلا القليل، لأنه ركز على الجوانب الاجتماعية والسياسية.

وتخلص الدراسة بعد عرض تجربة "سيد قطب" الأدبية إلى وصفها بالتجربة الجادة، وأنها يسرت له العودة إلى القرآن الكريم (أواخر الثلاثينيات) قارئاً متذوقاً لأساليب التعبير، لكنها- فى رأى الباحث- لا تمثل أصالة كبيرة أو بارزة إلا فى تفسيره الأدبى- كما يسميه- للقرآن الكريم. ويدافع عن هذا الحكم قائلاً: "وإذا بدا هذا الحكم ظالماً فعلينا أن نراجع هذه المحاولات بمعزل عن تمرد صاحبها وتحوله عنها. أى بمعزل عن سيد قطب الداعية الإسلامى"*.

ولا ريب أن هذا الحكم فيه ظلم كبير، فلو لم يملك سيد قطب أصالة أدبية بارزة وعميقة، لما استطاع أن ينهض بتفسير الظلال من ناحية، وما كانت كتاباته النقدية حاضرة فى واقعنا الأدبى حتى الآن.. ولا يضيره بحال قلة إبداعه فى الفنون الإنشائية، فطبيعته ناقدة بالدرجة الأولى، تهتم بالقضايا الذهنية والعقلية، وقد نجح فيها نجاحاً كبيراً.

ويبقى السؤال قائماً: هل تمرد سيد قطب على الأدب حقاً؟ أم إن الأدب كان حلقة فى سلسلة تطور أكبر، أنتج لنا "فى ظلال القرآن" بصياغته الأدبية الفريدة التى تجعل منه أديباً كبيراً وأصيلاً وبارزاً ولو لم يكتب غيره؟

مهما يكن من أمر؛ فإن "على شلش" اجتهد فى قراءة "سيد قطب"، وتتبع آثاره، وكشف عن بعضها الذى لا يعرفه الناس، وخاصة ما انطوت عليه الصحف والدوريات التى كانت تصدر قبل نصف قرن أو

---

* صدرت الدراسة عن دار الشروق، القاهرة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م، بعد رحيل كاتبها- يرحمه الله- وكان قد حدثنى عنها قبل نشرها، عندما التقينا فى الرياض عام وفاته.

يزيد، وقدم للقراء جانباً مهماً من جوانب الرجل الذى أثر فى جيله والأجيال التالية له، ولقى ربه واثقاً وهادئاً وشهيداً.

* * * *

أدب الأطفال

يمثل أدب الأطفال مجالاً حيوياً فى تربية الأجيال الجديدة، وفقاً لما تريده الأمم والشعوب. ذلك أن الطفل فى مراحله الأولى يتشبع بما ينشأ عليه من قيم وأفكار، ويتأثر بها إلى حد كبير فى سلوكه وتفكيره عندما يكبر ويصير رجلاً.

وقد سبقتنا أمم الغرب فى هذا المجال منذ القرن السابع عشر، ومع أنه بدأ الاهتمام به على استحياء (فى فرنسا على وجه التحديد)، إلا إنه انطلق بعدئذ كاستراتيجية تربوية وجمالية فى دول أخرى عديدة مثل ألمانيا والدانمرك وانجلترا.. ثم أميركا واليابان، وصار لأدب الأطفال هنالك دور نشر متخصصة تعد بالآلاف وتحقق أرباحاً مادية ومعنوية هائلة.

وفى العالم العربى والإسلامى أخذ الاهتمام بأدب الأطفال يخطو خطوات محدودة مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ثم أخذت الخطوات تتسع شيئاً فشيئاً فى أيامنا، وإن كانت لم تزل دون المأمول، ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر ذلك الاهتمام الكبير بأدب الأطفال فى الأجهزة الثقافية والجامعات والمدارس، ودور النشر والصحف اليومية والأسبوعية والشهرية.

وقد انصب التركيز فى أدب الأطفال على الكتابات النثرية دون الشعر، حتى غدا ما يكتب شعراً للأطفال لا يمثل غير ٣% من مجموع أدب الأطفال.. وهو ما يعنى أن هنالك تقصيراً كبيراً فى مجال الكتابة الشعرية للأطفال على مستوى القصيدة الغنائية أو الحوارية أو المسرحية أو القصة الشعرية أو الموضوع التاريخى أو غير ذلك من فنون شعرية.

وقد تتبع "أحمد فضل شبلول" الكتابة الشعرية للأطفال فى كتاب يعد الأول من نوعه فى هذا السياق، وهو "جماليات النص الشعرى للأطفال"، حيث عرض للأعمال الشعرية التى صدرت للأطفال على امتداد الوطن العربى فى العصر الحديث.. وخاصة فى الفترة الأخيرة، فرأينا أعمالاً للعديد من الشعراء منهم:

إبراهيم أبوعباة (السعودية)، إبراهيم الشعراوى (مصر)، أحمد الحوتى (مصر)، أحمد زرزور (مصر)، أحمد محمد الصديق (فلسطين)، بهاء الدين عبدالموجود (مصر)، جمال عمرو (مصر)، حسين على محمد (مصر)، محمد موفق سليمة وشقيقه (سورية)، عبدالعليم القبانى (الإسكندرية)، علال الفاسى (مراكش)، على الشرقاوى (البحرين)، على عبدالمحسن جبر (السعودية)، عمر بهاء الأميرى (سورية)، فؤاد بدوى (مصر)، محمد السنهوتى (الزقازيق)، محمود أبوالوفا (مصر)، محمود مفلح (فلسطين)، محى الدين خريف (تونس)، مصطفى صادق الرافعى (مصر)، مصطفى عكرمة (سورية) يحيى الحاج يحيى (سورية).

وقد توقف الكاتب أمام كل شاعر، وناقش عمله الشعرى، واهتم بالنواحى الفنية، وخاصة العروض والقافية، وهى نقطة مهمة كشفت عن طبيعة الأوزان والقوافى الملائمة للأطفال.

كما ألحق المؤلف بكتابه أربعة عروض لأربعة كتب درست شعر الطفولة، أهمها كتاب مترجم للكاتب "أريك جى بولتون" الذى يناقش فيه كيفية كتابة الأطفال للشعر، ويطرح بعض القضايا التى تتعلق بامتلاك الطفل للموسيقى الشعرية دون إدراك لقوانينها.

وقد انتهى المؤلف فى خاتمة كتابه إلى إصدار ثلاثين توصية ونتيجة مهمة تتعلق بكتابة الشعر للأطفال، موضوعاً وبناءً وصياغة، منها:

١- حركية شعر الطفولة وامتلائه بالحيوية والنشاط، وهو ما يلائم طبيعة الأطفال.

٢- القصائد الحوارية، تسهم فى إثراء المعرفة لدى الطفل، فضلاً عن إمكانية تمثيلها، أو إلقائها مع مجموعة من زملائه.. مما يوطد علاقته بمجتمعه الصغير والكبير فى آن.

٣- تمثل الطبيعة عنصراً مهماً فى شعر الأطفال، بوصفها مصدراً للجمال والمتعة.

٤- بعض الشعراء كتب عن الأطفال، ولم يكتب للأطفال، مما جعل شعره بعيداً عن مجال الطفولة الحيوى.

٥- ضرورة استلهام القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والتاريخ الإسلامى فى الكتابة للأطفال لربطهم بهويتهم وشخصيتهم الحضارية، فضلاً عن شخصيتهم الإسلامية.

٦- من المآخذ الفنية على بعض النصوص طول البيت الشعرى بطريقة لا تتناسب مع الشعر الموجه للأطفال، إذ المفروض أن يكون سريع الإيقاع، قصير الجمل، مقفى دائماً.

٧- ضرورة أن يتخلص الشاعر الذى يكتب للأطفال من بعض الصور الشعرية المركبة التى يصعب على الصغير فهمها، وإدراك ما وراءها من دلالات مثل: (المسافات أوشكت أن تطيرا)، (الشاطئ

بالسر يبوح)، (من رش على الشاطئ سحرا)، (يعود النبع إلى البحر كالحلم الرائع كالسحر)، (نقول للأشواق طيرى..)...

٨- على الشاعر الذى يكتب للأطفال أن يقدم المعلومة الصحيحة فى إطارها الفنى المناسب، ذلك أن الطفل إذا اكتسب معلومة خاطئة فمن الصعب تغييرها أو تصحيحها.. وفى الوقت ذاته يفقد الثقة فيما يقدم له إذا اكتشف الخطأ.

٩- قد لا يستجيب الطفل لأفعال الأمر المباشرة، لأنه عنيد بطبعه، ويلزم عند التعامل معه أن يكون هنالك نوع من المرونة والذكاء حتى يستجيب للنصح والإرشاد.

١٠- من الأجدى تطبيق وحدة الموضوع فى قصائد الصغار، حتى لا يتشتت ذهن الطفل فى انتقاله بين أكثر من موضوع فى النص الواحد.

١١- شكلت مجزوءات البحور نسبة كبيرة فى النصوص المكتوبة للأطفال، مما يعنى إدراك الشعراء لطبيعة الطفولة وطبيعة الأوزان المناسبة لها.

ولا تقل التوصيات والنتائج الأخرى التى توصل إليها "أحمد شبلول" فى كتابه "جماليات النص الشعرى للأطفال" أهمية عن هذه التوصيات والنتائج التى أشرنا إليها، وهى موجهة بالدرجة الأولى إلى الشعراء الذين يكتبون للأطفال، ولغيرهم من الشعراء الذين قد يفكرون فى الكتابة لهم، فيتعرفون على الفروق الموضوعية والفنية بين ما يكتب للأطفال وما يكتب لغيرهم.

لقد انطلق "شبلول" فى كتابه من تصور إسلامى، يؤصل للقيم الإسلامية المشعة فى أدب الأطفال عامة، وشعر الأطفال خاصة، وهو

ما دعاه إلى رفض بعض النماذج التى تنطلق من تصورات مادية أو غير إسلامية، كما كان واعياً بحركة المجتمع العربى الإسلامى والواقع الإنسانى المعاصر، وضرورة التفاعل معه، ومع منجزات المدنية الحديثة التى تخدم عملية التطور والنهوض الحضارى، وأكد على ذلك من خلال النماذج المختارة أو النتائج التى ألمح إليها.

ومع أن كتاب "شبلول" كان متابعة جادة للإنتاج الشعرى المكتوب للأطفال، فقد كان المأمول أن يعالج بعض النقاط المهمة مثل القصة الشعرية للأطفال، والمسرحية الشعرية للأطفال، والكتابة التاريخية للأطفال، إذ إن هذه النقاط وغيرها تبدو على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لأدب الطفل عامة، وشعر الطفل خاصة، فهى تستوعب بصورة ما العنصر الدرامى الذى يملك تأثيراً فعالاً على وجدان الطفل وعقله، حيث يكون هذا التأثير أقوى فعالية عندما يخرج إلى المعالجة التمثيلية أو المسرحية، إذاعياً أو تلفزيونياً.

يثير كتاب "شبلول" قضايا مهمة وعديدة يضيق المكان عنها، ولكنه ينبهنا إلى مجال حيوى ومهم فى أدب الأطفال، وهو الشعر الذى لا يحظى بأكثر من ٣% من مجموع الكتابات الموجهة للأطفال كما سبقت الإشارة.. ولعل هذا يحرك قرائح الشعراء لدخول هذا المجال بعد أن صار أطفالنا نهباً لآداب أجنبية وقيم غريبة، لا تلائمهم ولا تنمى فيهم عناصر الهوية الإسلامية ومفرداتها الحضارية.. والكرة الآن فى ملعب الشعراء.. فمتى يكتبون للأطفال الأعزاء؟ هذا هو السؤال.. والإجابة عند الشعراء فى كل الأحوال*.

---

* صدر الكتاب عن الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م.

أدب الوصايا والمواعظ!

هذا لون من الأدب الإسلامى أهملته الدراسات الأدبية والنقدية، مع غناه الكبير بالقيم الإنسانية والإيمانية والفنية. ولا يستطيع أن يبرع فيه أديب أو خطيب ما لم يكن موهوباً فنياً ويملك مفاتيح القول فيه عن تجربة وخبرة ودراية. وقد شاع فى مفهوم بعض الكتاب والنقاد أن هذا اللون من الأدب لا قيمة فنية له، بل عده بعضهم خارج إطار الفن الأدبى بصفة عامة. ولعل هذا ناتج عن عدم معرفة وثيقة به، أو عدم إطلاع على نماذجه الرفيعة التى يزخر بها أدبنا العربى قديماً وحديثاً، بل تزخر به آداب الشعوب الأخرى نبذ المصريين القدماء واليونان والرومان والفرس والهنود.

وقد عكف الدكتور "عدنان على رضا النحوى" على دراسة هذا اللون الأدبى الرفيع، فأخرج لنا دراسة طويلة تتجاوز الثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط (صدرت طبعتها الأولى فى الرياض ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م) تتناول منزلة أدب الوصايا والمواعظ، ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية، ويهديها إلى الأدباء المسلمين الذين يصدقون فى عطائهم وبذلهم، وإلى الشباب المؤمن الذى يشق دربه إلى الجنة، ليرى الجميع منزلة أدب الوصايا والمواعظ، وليروا شدة حاجتنا اليوم إلى هذا الأدب والفكر، كما يهديها إلى الدعاة والعلماء المسلمين كى يقدموا النصيحة والموعظة على النهج الذى رسمه الإسلام، ويكشف هذا الإهداء عن الغاية المزدوجة التى يبتغيها الباحث، وهى غاية فكرية وفنية فى آن واحد، وقد اجتهد عبر سبعة أبواب تسبقها مقدمة ليحقق هذه الغاية.

فـى مفهـوم الأدب الملتـزم بالإسـلام يقـدم لنـا الباحـث تعريفـاً لـه، ومبينـاً خصائصـه وأهدافـه، ويؤكـد علـى أن الكـون كلـه ميـدان الأدب الإسـلامى، والحيـاة الإنسـانية بسـاحاتها المختلفـة، والـدنيا والآخـرة، مـن خـلال تصـور متكامـل متناسـق، كمـا يوضـح أن الأدب الإسـلامى أدب إنسانى ينبع من حقيقة الإنسان ويعالج قضاياه، وهو أيضاً أدب عالمى يستمد عالميتـه مـن إنسـانيته وامتـداده. ويشـير الباحـث إلـى أن مـا كتـب حول أدب الوصايا والمواعظ فى العصر الراهن كـان قليلاً، وأن المـؤتمر الـذى أقامتـه رابطـة الأدب الإسـلامى فـى الهنـد (١٤١٧هـ= ١٩٩٦م) أعطـى دفعـة قويـة لهـذا الموضـوع حيـث دارت أبحـاث المـؤتمر حـول الخصـائص الأدبيـة للوصـايا والمـواعظ وتطورهـا وأهميتهـا، فـى مختلـف العصـور الإسـلامية، وعنـد أبـرز أعـلام هـذا الأدب مـن أمثـال الحسـن البصـرى والفضـيل بـن عيـاض ومعـروف الكرخـى والغزالـى وعبـدالقادر الجيلانى وابن الجوزى وابن تيميـة وابن قيم الجوزيـه، ودور هذا الأدب فى إصلاح المجتمع، ودوره فى ميدان التربيـة والتعليم ومعالجـة النفوس وإصلاحها.

وتنـاقش الدراسـة الآراء التـى تـرى أن الموعظـة ونهجهـا ونهـج مشتقاتها، ليست ميداناً للأدب عامة أو للأدب الإسلامى خاصة، ولا تجد فيها سبيلاً للفن وجماله، وتشير إليها إشارات تبعدها عن ميدان الأدب أو تحط من قيمتها. وتطرح الدراسـة العديد من الحجج التى تؤكد علـى أدبيـة الموعظـة وفنيتهـا، وتقـدم الشـواهد المؤكـدة علـى مـا تـذهب إليـه ومنها قوله تعالى: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾. (النسـاء: ٦٣) والقول البليغ هو الذى يبلـغ أعماق النفوس، ولا يتحقق ذلك إلا بالثراء

الفكرى والأدبى والفنى وعلو البيان وسمو التعبير. كما تشير الدراسة إلى أسباب هبوط مستوى الموعظة وركاكتها فى بعض العصور والمراحل التاريخية، مما أثر على نظرة البعض إلى أدبها وقيمته الفنية.

وميزة هذه الدراسة أنها جمعت فى عدة أبواب نماذج رفيعة وعالية من الوصايا والمواعظ، استخرجها الباحث من كتب العقائد والتاريخ والأدب. فهناك نماذج من الهند والفرس واليونان والشرائع السماوية السابقة والعصر الجاهلى، والقرآن الكريم وأحاديث الرسول-ﷺ-، والخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والعهد الأموى والعصر العباسى، كما تخصص الدراسة مساحة كبيرة لأدب الوصايا والمواعظ فى الشعر على امتداد عصوره، وتختص بصورة خاصة بما قاله الشعراء الزهاد فى العصر العباسى.

التناول الفنى لهذه النماذج جاء موجزاً وسريعاً، وكان الأولى بالدراسة أن تركز على هذا الجانب، لتضىء النصوص الوعظية بطريقة موسعة تتجاوز الإشارات السريعة، وإنى لأتصور أن النماذج التى وردت فى سياق الدراسة تتيح مجالاً خصباً للباحث كى يتناولها باتساع وشمول يعطيان عناصر كثيرة وعديدة.

وتخلص الدراسة فى نهاية المطاف إلى أن الوصايا والمواعظ قد حافظت على مستوى أدبى رفيع فى مختلف العصور، وقد تميز كل عصر بخصائص فنية متميزة وجديدة، ولكنها كلها حافظت على أصالة اللغة العربية وصانت حرمتها، ولكن يظل القرآن الكريم هو الموعظة الأعلى والأغنى فى حياة البشرية، الموعظة المعجزة فى يسرها حتى يفهمها الناس، والمعجزة فى أنه لا يستطيع أحد بلوغها، وتأتى الأحاديث الشريفة بعد ذلك، ثم ما قدمه الخلفاء الراشدون، ليظل هذا فى قمة

أعلى مما جاء بعد ذلك. وفى العهد الأموى أخذت الكتابة صورة من التخصص والتفرغ، واتخذ الخلفاء كتاباً لهم، كما اتخذوا معلمين ومؤدبين لأولادهم. فقد دخل فى الإسلام شعوب كثيرة لا تعرف العربية أو لا تتقنها، وبعد الخلفاء والأدباء والشعراء عن البادية حتى اضطر بعضهم إلى أن يرسل أبناءه إلى البادية لتستقيم ألسنتهم..

ولكن الضعف والوهن أخذ يزداد مع عصور لاحقة دون أن يشعر المسئولون بخطورة هذا الأمر وضرورة علاجه، أو دون أن يشعروا أن اللغة العربية جزء من منهاج الله، وأن تعلمها وإتقانها واجب كل مسلم، مما أثر بدوره على أسلوب الموعظة معنى ومبنى.

* * * *

"محطات فى الحياة"

فـى كتابــه "محطــات فــى الحيــاة"*؛ يواصـل الـدكتور عبدالســلام العجيلى، رحلتـه مـع الكلمـة الهادفـة، التـى تحتفظ بقيمتها وحيويتها مـع مرور الأيام؛ فيقدم مجموعة من محاضراته الأدبيـة والعلميـة التـى ألقاها فى مناسبات مختلفة، وهى المجموعة الخامسة فى سلسلة المحاضرات التـى ألقاها وجمعها فـى كتب ونشرت مـن قبل، وكانـت علـى التـوالى: أحاديث العشيات- السيف والتـابوت- سبعون دقيقـة- حكايـات- حفنـة من الذكريات. وقد أتيح لى أن أقرأ معظمها فى العقدين الماضيين، وأن أعرض لبعضها على صفحات المجلات الثقافية.

وتتميز محاضرات "العجيلـى" بالحيويـة الفائقـة، ومـع مـا قد يفرضـه الموضوع أحياناً، من لغة علميـة تقريريـة جافـة، فإن هذه اللغة لا تقف عائقاً فى طريق الحيوية الفائقة التى تجعل المتلقى يتفاعل معها تفاعلاً عميقاً، ويستفيد منها استفادة جيدة، وذلك لسبب بسيط وصعب فـى آن واحد. هذا السبب هو الموهبة الروائية أو موهبة القص التـى يتمتـع بهـا الكاتب، وهى موهبة لا تتاح لجميع الكتـاب، إنهـا تقتصر علـى الروائيين فقـط، والعجيلــى واحـد مـنـهم، إنــه يسـتطيع أن يشـد قارئــه إلــى أصـعب الموضـوعات عبـر الحكايــة أو القصــة، ويسـرب إليــه أعقـد المعلومـات الطبيــة أو الفيزيائيــة أو الكيماويــة بلغــة ميسـرة وسـهلة يمتلكهـا بحكـم شاعريته التى تجاوز موهبته القصصية. وقد عددت محاضراته فى مقالة

* صـدر الكتــاب فــى سلسـلة دراســات نقديــة عربيــة، ويحمـل رقـم (١٣)، عـن منشورات وزارة الثقافـة، دمشق، ١٩٩٥، ويقـع فـى ١٦٨ صفحة من القطـع المتوسط، ٢٤سم.

لى كتبتها منذ زمن بعيد. قصصاً كانت المقالة تحت عنوان "القصة المحاضرة" على ما أذكر، وما زلت أرى أن هذا الوصف ينطبق على هذه المجموعة "محطات فى الحياة"، شريطة أن نتجاوز قليلاً عن بعض خصائص القصة.

مما يساعد على حيوية محاضرات العجيلى بالإضافة إلى موهبته الأدبية فى القصة والشعر، وعيه الحاد بالتراث العربى الإسلامى، وتجاربه العميقة والمتنوعة فى الحياة، وثقافته العريضة الشاملة التى تمتد من الطب إلى الفن إلى السياسة (بمفهوم الرؤية لا المشاركة، وإن كان قد تولى الوزارة لمدة قصيرة، وانتخب نائباً عن بلدته فى مجلس النواب بدمشق).

يبدو وعيه الحاد بالتراث العربى الإسلامى ساطعاً فى كتابات العجيلى على نحو يثير الإعجاب بقدرته على فهم هذا التراث وتحليله، فضلاً عن حفظ أحداثه ومضامينه. لقد عرض مثلاً فى محاضرته عن "معاوية بن أبى سفيان: ملفه الصحى- دراسة طبية تاريخية"، صورة تحليلية عميقة لبعض الأحداث الصحية التى مرت بالخليفة الأموى مستعيناً بما كتبه الرواة القدامى حول مرضه، ومستفيداً بأحدث الدراسات العلمية التى تناولت هذا المرض. كما يتجلى وعى العجيلى الحاد بالتراث فيما كتبه عن الشعر والرحلات فى محاضرة تحمل هذا المضمون، فقد أورد العديد من النصوص التراثية شعراً ونثراً تنبئ عن حافظة لاقطة، رهينة الشفافية، تنبئ عن حس أدبى راق، خاصة عندما يورد بعض النماذج الشعرية التى تؤثر فى المتلقى نفسياً وعاطفياً وسلوكياً.. ومن هذه النماذج على سبيل المثال:

١- رأينا حوشباً قد بات يبنى   بيوتاً نفعها لبنى نفيله

يؤمل أن يعمر عمر نوح ... وأمر الله يحدث كل ليله

٢- ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

٣- ولم أر ظلماً مثل ظلم ينالنا ... يجار علينا ثم نؤمر بالشكر!

٤- أكلما رخص الإنسان فى وطنى ... تغلو البضاعة فيه؟ جل ربنا!

٥- من سلا عنك فاسله ... لك فى الناس مثله

لا تقولن لم ولو ... أو عسى أو لعله..

فالعسى تعقد الأسى ... والتعزى يحله

كل حب إذا انتهى ... بعضه هان كله

٦- أفى كل عام غربة ونزوح ... أما للنوى من وثبة فتريح

لقد طلح البين المشت ركائبى ... فهل أرين البين وهو طليح

وارقنى بالرى نوح حمامة ... فنحت وذو الشجو القدين ينوح

على أنها ناحت ولم تذر دمعة ... ونحت وأسراب الدموع سفوح

وناحت، فرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخى مهامه نيح

عسى جود عبدالله أن يعكس النوى ... فتضحى عصا الأسفار وهى طريح

وفقد الغنى بالمقترين نزوح

فإن الغنى يدنى الفتى من صديقه

إن كتاب "العجيلى" يفيض بالتجارب الإنسانية التى استقاها من ذكرياته على مدى عمره المديد- إن شاء الله- ومن أسفاره التى أكثر منها وعشقها، وخصص لها من قبل بعض أعماله وكتبه. تستطيع أن تعيش معه ذكرياته فى بلدته "الرقة" التى ولد فيها وعاش حتى يومنا، ولم يقبل بالرحيل عنها، مع أنه وصل إلى مستوى علمى وأدبى واجتماعى مرموق يجعل أمثاله، يشدون الرحال إلى المدن الكبرى أو العاصمة تحديداً، ولكنه أصر على أن يعيش بين أهله وذويه يؤدى عمله اليومى، ويمارس هوايته فى القراءة والكتابة، ويخاطب الدنيا من "الرقة" عبر الكلمة المطبوعة. فى محاضرته عن بلدته، يجول بنا فى التاريخ البعيد، حتى أيامنا الراهنة، فنرى الرقة وهى تتحول من وضع إلى وضع حتى صارت مقراً حضرياً للعديد من القبائل العربية على نهر الفرات.. ومن هذا المقر استلهم "العجيلى" العديد من أعماله الروائية والشعرية والقصصية فضلاً عن المقالات والخواطر.. ويرد العجيلى على الذين يستنكرون إقامته بهذه البلدة البعيدة عن دمشق يقول الشاعر:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

ويتناول العجيلى فى محاضرة كاملة الشاعرة السورية الراحلة "عزيزة هارون"، ويسميها كما سمت نفسها بالشاعرة "الياسمينة"، فيسرد حياتها وتاريخها الأدبى، ويقدم نماذج من شعرها، ويحللها فى إطار قصصى شائق، كما يطرح من خلالها علاقة الشاعرة العربية أو المرأة العربية بالتقاليد الاجتماعية السائدة، ويكشف عن قدرة "عزيزة هارون" على مواجهة الظروف الاجتماعية الصعبة، ومقاومتها.

إن ثقافة العجيلى المتنوعة الشاملة تشكل المحور العميق الذى تدور من خلاله محاضراته، وأدبه بصفة عامة، وفى "محطات فى الحياة" نتعرف على وجوه عديدة لثقافة العجيلى التى تتجلى معالمها فى أكثر من ميدان. عندما يحدثنا فى خطابه إلى الأطباء الهضميين الذين اجتمعوا فى مؤتمر لأمراض الجهاز الهضمى، يربط ما بين القيم العربية فى المأكل والمشرب، وتفادى أمراض البطن، وهى قيم تحدثت عنها كتب الرواة والأخبار، كما تضمنها الشعر العربى القديم، فعلى سبيل المثال، قال عروة بن الورد:

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى ... بجسمى شحوب الحق والحق جاهد

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقال متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك:

لقد غيب المنال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشية أروعاً

وقال المتنبى فى صاحبته:

تشكو المطاعم طول هجرتها ... وصدودها، ومن الذى تصل

وقد روت كتب تاريخ الأدب أن الحرث بن كَلَدَه الثقفى وفد على كسرى أنوشروان فسأله هذا: من تكون؟ قال: طبيب العرب. فقال كسرى: وهل بالعرب حاجة إلى طبيب مع جفاء طباعهم وغلظ أبدانهم؟ قال الحرث: إذا كانوا كما ذكر الملك فإنهم إلى الطب أحوج وأشد عوزاً. وأعقب ذلك حوار بين كسرى والحرث أدرك منه كسرى خطأه فى الحكم على العرب وسوء تقديره لمعرفة هذا الطبيب، الوافد إليه منهم، بكل ما

يتعلق بصحة جسد الإنسان وعلله. وكان أول أسئلة كسرى للحرث عن فنه الذى يمارسه قوله: ما أصل الطب؟ قال الحرث: هو الأزم. والأزم كما فسروه هو ضبط الشفتين عن المآكل. وكان عند العرب فضيلة قبل أن يكون صحة أو سلوكاً صحياً يحفظ على الإنسان حياته وجسمه سليماً معافى، لأن المعدة- كما ورد فى الأثر- بيت الداء.. ومن ثم ينطلق العجيلى فى الحديث عن الأمراض الهضمية بلغة العصر ومن خلال أحدث ما وصل إليه العلم.

فى نهاية محاضراته العديدة يلحق العجيلى لقاء إذاعياً أجرته معه إحدى الإذاعات العربية فى فرنسا، يتحدث فيه عن أدبه وفنه ورحلاته وآرائه فى القضايا المختلفة، وهو لقاء مهم يكشف الكثير عن طبيعة كتاباته وشخصيته، وخاصة للباحثين فى الأدب المعاصر.

ولا ريب أن ما يكتبه العجيلى، أياً كان ما يكتبه؛ يمثل شهادة على مرحلة حرجة من المراحل التى تمر بها أمتنا، ويعبر عن جانب مهم فى أدبنا المعاصر.. وكتابه "محطات فى الحياة" يمثل صورة متعددة الجوانب لهذا الأدب وتلك المرحلة.

* * * *

المومس العمياء.. وخيانة الشيوعيين!

الشاعر العراقى الراحل "بدر شاكر السياب" (١٩٢٤- ١٩٦٤م)، من رواد الشعر الحر فى العصر الحديث، ومن أصحاب التجارب العميقة والتحولات المثيرة، ومع أنه عاش عمراً قصيراً نسبياً، (أربعين عاماً)، فقد ترك تراثاً ضخماً من الشعر والنثر، وقد جمع شعره فى مجلد ضخم يتجاوز سبعمائة صفحة من القطع الصغير، وله مجموعة من الكتب، أخطرها ما نشر مؤخراً عن دار الجمل فى ألمانيا بعنوان "كنت شيوعياً" يتضمن مقالاته التى كتبها عام ١٩٥٩ فى جريدة الحرية البغدادية، ووصلت إلى أربعين مقالاً يروى فيها تجربته مع الحزب الشيوعى العراقى؛ التى انتهى فيها الصدام مع الشيوعيين إلى الانفصال عنهم، وكشف فضائحهم وخياناتهم للأوطان والدين.

لقد اشتعل الصدام عندما كتب السياب قصيدته الشهيرة "المومس العمياء"، وفيها يرصد تجربة قطاع من النساء تستباح أجسادهن نظير لقمة العيش، ويربط تلك الاستباحة باستباحة الأوطان والأمة العربية، والقصيدة ذات نفس طويل، يحتشد بالرموز والأساطير والإشارات.. وقد جاءت إشارته إلى العروبة فى القصيدة لتكون قشة تقصم ظهر البعير الشيوعى، وتجعل السياب يترك البعير وأصحابه، وينتقل إلى عالم آخر، عالم الجذور العربية الإسلامية التى تجلت فيما بعد فى قصيدته الأشهر: سفر أيوب.

كانت إشارته فى "المومس العمياء" تقول:

"كالقمح لونك يا ابنة العرب/ كالفجر بين عرائس العنب/ أو كالفرات، على ملامحه/ دعة الثرى وضراوة الذهب/ لا تتركونى.. فالضحى نسبى:/ من فاتح، ومجاهد، ونبى!/ عربية أنا: أمتى دمها/ خير الدماء.. كما يقول أبى".

ولـم يكتـف السـياب بهـذه الإشـارة، بـل علـق عليهـا فـى هـامش القصيدة بقوله: "ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفينيين يجب أن تكون القومية شعبية، والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلى وأبى ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشـون عيشـة تليق بهم كبشر وكورثة لأمجاد الأمة العربية".

كانـت تلك الإشارة وهذا التعليق، بدايـة الانفصال بـين الشـيوعيين العراقيين والسياب، مما جعله يفيق من وهم الدعاية الشيوعية السوداء، فيكشف معاناته ومشاهداته فى خضم التجربة الشيوعية،أو الحداثية كما يسميها بعضهم، وأخذ فـى عام ١٩٥٩م يكتب سلسلة مقالاتـه الأربعين التى ضمها كتابه الذى صدر مؤخراً، وأعده وليد خالد أحمد حسن.

وهناك أوجه تشابه بين تجربة الحزب الشيوعى فى مصر، ونظيره فى العراق، فالقادة والمؤسسون هنا وهنـاك من اليهود. فـى مصر كـان "هنريـل كوريـيـل" اليهـودى الغـامض وآخـرون يمثلـون الآبـاء الـروحيين للشـيوعيين المصريين. وفـى العراق كـان رؤسـاء الحـزب الشـيوعى مـن اليهـود أيضـاً، أبـرزهم: يهـودا صـديق، ساسـون دلال، إبـراهيم يوسـف زلخـة، نـاجى شـميل.. وقـد وصـمهم السـياب بالخونـة الـذين دفعـوه مـع أقاربه لتوزيع منشورات تخدم الحركة الصهيونية، من خلال شعار يقول فـى أثنـاء حـرب فلسـطين ونكبتهـا "نحـن إخـوان اليهـود"، وقـد اتفـق الشيوعيون العرب فى البلاد العربية، وخاصة مصر والعراق على الوقوف إلى جانب الصـهاينـة، مهاجمين القوات العربيـة التـى شاركت فـى معارك ١٩٤٨ دعمـاً للفلسـطينيين الـذين هجّـرهم اليهـود بـالقوة. وقـد وصـف الشيوعيون هذه المشاركة العربية المساندة لشعب فلسطين بالقذرة، لأن المعسكر الشيوعى بقيادة موسكو كان يؤيد قيام دولة العدو.

لقد كانت صحوة السياب بعد ثمانى سنوات قضاها مخلصاً للحزب الشيوعى العراقى، وعياً جديداً بالإسلام والعروبة، وهو ما جعله يرى الإسلام أفضل الأديان، ومحمد عليه الصلاة والسلام أفضل الأنبياء، مؤكداً أنه يدافع عن الدين والقومية والتقاليد والتراث..

لقد تجلت هذه الصحوة فى الروح الإيمانية التى تخللت قصيدته "سفر أيوب"، وهى تفيض تسليماً بالقضاء والقدر، وترى فى تجربة المرض العضال التى أقعدته وآلمته "هدية" من هدايا الخالق المحبوب.

"ولكن أيوب إن صاح صاح:/ لك الحمد إن الرزايا ندى،/ وإن الجراح هدايا الحبيب"/ أضم إلى الصدر باقاتها،/ هداياك فى خافقى لا تغيب،/ هداياك مقبولة، هاتها!".

كما تجلت هذه الصحوة فى كشفه للطبيعة الشيوعية الخسيسة، فالشيوعيون العراقيون لصوص وقتلة (مجازر كركوك) ومنحلون خلقياً وخاصة النساء، ولا يتورعون عن الاغتصاب كما فعل أحد القياديين مع الرفيقة اليهودية "مادلين مير"، وهم كذبة ومخادعون.. ويعترف أنه شاركهم فى خداع الفلاحين، حيث أوهمهم أنهم سيتملكون الأراضى، ويعيشون فى رفاهية إذا انضموا للحزب الشيوعى، وقضوا على حكم نورى السعيد!

إنه يشبه الشيوعيين بالقرامطة، وهو ما يذكرنا برواية الأديب العبقرى الراحل "على أحمد باكثير" المسماة "الثائر الأحمر" التى عبر فيها عن ثورة حمدان قرمط، وتنبأ فيها بسقوط الشيوعية، وقد تحققت نبوءته بسقوط الاتحاد السوفياتى أوائل التسعينيات!

لقد وصف السياب "كارل ماركس" فيلسوف الشيوعية باليهودى التائه، أو اليهودى القذر قاسى القلب الذى ألف "رأس المال" بدافع الحقد والحسد والتعصب اليهودى، وتأثير التوراة. كما هاجم لينين أيضاً،

وحزب "تودة" الشيوعى الإيرانى الذى تآمر على أعضائه عام ١٩٥٢ مما أدى إلى إعدام ٧٣٢ ضابطاً شيوعياً فى إيران.. ولم يكتف السياب بالهجوم على زعماء الشيوعية وأحزابها، بل امتد هجومه إلى الشعراء الشيوعيين الأجانب والعرب، مثل ناظم حكمت، حيث يراه شاعراً تافهاً، وكونستانتين سيمونوف، وبابلو نيرودا، وعبدالوهاب البياتى، فهؤلاء وأمثالهم أصحاب شعر سخيف.

لقد كان هجومه الصاعق على الشيوعيين العراقيين دافعاً لوصفهم بالجبن والقسوة والإجرام والسرقة وخداع الجماهير.

لقد كان السياب كما قال فى قصيدته "حفار القبور":

".. فى ساعة الشفق الملون كان إنسان يثور/ بين الجنادل والقبور/ نفس معذبة تثور/ بين الجنادل والقبور.

"أأظل أحلم بالنعوش، وأنفض الدرب البعيد

بالنظرة الشزراء،واليأس المظلل بالرجاء

يطفو ويرسب، والسماء كأنها صنم بليد

لا مأمل فى مقلتيه.. ولا شواظ.. ولا رثاء؟...."

تمزق السياب فى أحضان الشيوعية، ولكنه تدارك نفسه، وأدركته رحمة الله، فاستيقظ من غفوته، ليكشف الأكاذيب التى ما زال يدمنها الشيوعيون المعاصرون، وما زالوا يصرون أنهم يملكون الحقيقة المطلقة، والنقاء الكامل، والاستنارة الحقيقية..

وللأسف الشديد، فإن ما نراه فى أيامنا، من تصرفاتهم وأدبياتهم، يؤكد ما قاله السياب فى كتابه الجديد/ القديم.. حيث يرون أن اليهود إخوانهم، وأن وجودهم فى أرض فلسطين مسألة منتهية، وأن عودة الفلسطينيين إلى فلسطين وهم كبير يجب أن يطرده العرب والمسلمون

من أذهانهم. وأن اعتماد اليهود على التوراة والتلمود مسألة لا غضاضة فيها، بينما يقيم الشيوعيون الدنيا، ولا يقعدونها إذا تلفظ أحد باسم "الإسلام" فهو ظلامى أو إظلامى، وهو إرهابى ومتطرف ومتحجر ومتخلف وسلفى.. إلى غير ذلك من أوصاف ونعوت تهين الإسلام والمسلمين جميعاً.

لقد وصل بهم الأمر فى أيامنا إلى وصف الإسلام بأنه أخطر على المجتمعات العربية من الغزو النازى اليهودى، واختلقوا معارك مفتعلة مع "الدولة الدينية" المتوهمة التى سيقيمها المسلمون، وراحوا يسقطون الدولة الكنسية الأوربية على الدولة الإسلامية، وأغرقوا فى أكاذيبهم حول الحضارة العربية لدرجة أن جعلوا الإسلام عدواً للمساواة والمواطنة وغير المسلمين.. وقد رأينا مؤخراً حملتهم الضارية على جعل الإسلام ديناً رسمياً للدولة ومصدراً رئيسياً للتشريع بحجة أن هناك أقليات غير إسلامية تعيش مع المسلمين...

لقد جاء كتاب السياب "كنت شيوعياً: فى أوانه، ليفضح أكذوبة كبرى اسمها الشيوعية، أو "الحداثة" كما يتجمل بعضهم فى تسميتها.

* * * *

نجيب محفوظ وسلوك المثقفين!

لا شك أن سلوك المثقفين فى تعاملاتهم اليومية والإنسانية، يكشف عن طبيعتهم وأفكارهم ومعتقداتهم، إلى حد كبير. بالطبع هذا السلوك لا يدخل فى مجال إنتاجهم الأدبى والفكرى، ولا يؤثر فى تقويمه إلا بقدر ارتباط هذا الإنتاج بهذا السلوك.

وقد حكى لى مؤخراً أحد طلاب الدراسات العليا فى الكلية التى أنتمى إليها، أنه ذهب إلى أحدهم ممن يأكلون بالكاتب الراحل "تجيب محفوظ"، ويحتكرون حق الوصاية عليه وعلى فكره وتراثه، من أجل مساعدته فى إنجاز رسالة دكتوراه حول الكاتب الشهير وعلاقته بالسينما. فإذا بهذا "الأحد" يكلم الطالب بغطرسة ملحوظة وعجرفة شديدة، ويخبره فى خشونة أنه لا يعلم شيئاً عن الموضوع، ويجب عليه- أى الطالب- ألا يضيع وقته! يقول لى الطالب: أحسست كأن جردلاً من الماء المثلج اندلق فوق رأسى. كنت أحلم أن الكاتب الذى يلمع اسمه بالبنط العريض على صدر الصحيفة الأسبوعية التى يرأس تحريرها مثال للأخلاق الرفيعة والمثل العليا والقيم النبيلة، وأنه على الأقل سيردنى رداً حسناً، خاصة وأنه يعلم أننى قادم من مدينة بعيدة إلى القاهرة، متصوراً أنه يعلم كل شىء عن الرجل الذى يتحدث باسمه فى المناسبات المختلفة.. واختنق صوت الطالب وهو يذكرنى بالآية الكريمة ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ قائلاً: إن الله يعلم نبيه-ﷺ- ألا ينهر الشحاذ أو المتسول أو السائل الذى يطلب صدقة، ولست بطالب صدقة، ولكنى طالب عالم، أسأل كل من له صلة بموضوعى، أو أظن أن له صلة، فيساعدنى بما يقدر عليه، أو يعتذر فى لطف ورقة!

حاولت أن أطيب خاطر الطالب المسكين، وأن أقنعه أن المذكور ربما كان على موعد، أو مشغولاً بأمر مهم، ولكنه لم يقتنع ولم يطب نفساً..

كنت أعرف أن المذكور لا يمثل صورة الأديب الحقيقى الذى يمثله نجيب محفوظ، وقد عرفته أى نجيب فى السبعينيات بسيطاً، يحترم كل الناس، ويتواضع مع الصغير والكبير، ويحرص على مشاعر من يعرفه ومن لا يعرفه.. صحيح أننى لم أحتك به احتكاكاً عميقاً، ولكنى قرأت أدبه، وكتبت عن بعضه فى بعض كتبى وبعض المجلات، لم أؤلهه ولم أحقره، تعاملت مع أدبه وفقاً لمنهج نقدى يتناول الإيجابيات والسلبيات.. ويوم وجدت أن هناك من يتاجر بنجيب محفوظ، وخاصة بعد الحادثة التى تعرض لها، واستغلال البعض لما جرى للتشهير بالإسلام والمسلمين، وممالأة النظام البوليسى الفاشى.. توقفت عن الكتابة عن نجيب محفوظ، ورأيت أن من يؤلهونه هم أشد الناس إساءة إليه، وأنهم يستفيدون منه لغاية رخيصة جداً هى "الشهرة" حيث يستطيعون تسويق أعمالهم الروائية، ويحظون برضا السلطة ودخول حظيرتها الشهيرة التى تحدث عنها الوزير إياه!

قال لى الطالب المسكين، لقد تصورت أن فلاناً وهو يهاجم وزير الثقافة، يعبر عن مبادئ وقيم تحكم حياته وفكره! وهذا ما شجعنى على الذهاب إليه.

لزمت الصمت، ولم أقل له سر خروجه من الحظيرة وسر حملته المستمرة على الوزير، فى القشور دون اللباب. لم أقل للطالب إن صاحبنا كان يريد منصباً أكبر من حجمه يحتله أستاذ جامعى يجيد فن الخدمات الخاصة، وأن الوزير يومئذ كان قد وطد أركان حكمه فى الوزارة

بمن أدخلهم الحظيرة، ولما وجد صاحبنا يتزيد فى هجومه وانتقاده، منع الوزير عنه إعلانات سنوية كان ينشرها فى جريدته تقرب من ثمانمائة ألف جنيه فى السنة، يتقاضى منها عمولة- مخالفاً للتقاليد الصحفية- أكثر من أربعين فى المائة. ولذا كانت الحملة التى سخر لها صبيانه فى المطبوعة التى صارت "عزبة" خاصة له، كى يلدغوا الوزير من حين لآخر، وهو ما ترتب عليه حرمان صاحبنا من مغانم الوزارة وعطاياها فى الجوائز والسفريات والندوات وغيرها!

غطرسة صاحبنا ليست قاصرة عليه، فبعض من يحملون الأقلام من أصحاب المواهب الضحلة، والفكر السطحى، والطموحات غير المشروعة، ومثلهم بعض المغرورين الحمقى، يتعاملون مع الناس، وخاصة مع من هم أرفع منهم قدراً ومكانة بشىء من الاستخفاف والاستهانة. أحدهم مثلاً؛ حين يذكر اسم أستاذ جامعى مرموق، يذكره مجرّداً، وكأن ذلك يشبع قصوراً لديه حيث لم يحصل إلا على مؤهل متوسط أو شهادة إعدادية فنية، آخر حين يرد على الهاتف، وهو يعرف من يطلبه، يقول له: النمرة غلط. أو صوتك بعيد، مع أن زوجه قد ردت على الهاتف وعرفت الطالب، وذهبت تستدعى الزوج، مما يعنى أن الهاتف سليم والصوت واضح للغاية.. أمثال هذه التصرفات الرخيصة التى يهدف أصحابنا من ورائها إلى إثبات "نرجسيتهم" المفرطة، ووجودهم التافه، لا تضيف إليهم ولا تجعلهم خالدين؛ فهم لا يملكون إنتاجاً إنسانياً حقيقياً، يمكن له أن يستمر أو يخلد على الزمان.

إن كاتباً مثل محمد عبدالحليم عبدالله مثلاً، مات قبل أكثر من ثلاثة عقود من الزمان، ولكن كتبه الآن توزع أكثر، وتعاد طبعاتها، وتتأثر بها الأجيال الجديدة، مع أن أحداً من المتصدرين للإعلام الثقافى

والأدبى لا يتكلم عنه، ولا يذكره، ويمكن أن نجد الأمر نفسه فى جيل البناة بدءاً من محمد فريد أبوحديد، ومحمد سعيد العريان، وعبدالحميد جودة السحار، ومحمود تيمور وغيرهم.. والسر فى ذلك واضح، هو أنهم امتلكوا الموهبة وأدوات الفن الحقيقى والرؤية الإنسانية..

أما هؤلاء النرجسيون المعقدون المغرورون، فكتاباتهم الرديئة لا تملك شرف الاستمرار والقيمة الفنية العالية. ومن المفارقات أن بعضهم يضع نفسه فى دائرة البطولة والنضال ضد السلطة، ورموزها، وهو فى الحقيقة لا يعدو أن يكون خادماً رخيص القيمة لرموز السلطة فى الصحافة ولاظوغلى فضلاً عن أمور أخرى يحسن السكوت عليها عفة للقلم والشعور..

لقد رأيت أحدهم ذات مرة، وهو يكاد يقبل قدم رمز من الرموز التى كانوا يسمونها "إقطاعية"، أو أرستقراطية، وفى الوقت نفسه لا يكف فى مجالسه الخاصة وعلى المقاهى إياها من ذمه وانتقاصه، والتفاخر بمواجهته ومحاربته!

إن الذين يتاجرون بنجيب محفوظ، لا يملكون موهبة حقيقية، ولا أدباً راسخاً، ولا فكراً مضيئاً، وقد نبتوا فى ظروف غير طبيعية جعلت أسماءهم تتردد هنا وهناك، فظنوا أنهم كبار حقاً، وما هم كذلك بسلوكهم وأفكارهم وإنتاجهم.. وأحمد الله أن الفتى الذى عاد من القاهرة كسيراً محبطاً ليس لديه جهاز حاسوب يطالع عليه هذه الكلمات، فلا تسود الدنيا فى وجهه، ولا يسقط فى حمأة اليأس والإحباط المقيم. ورحم الله نجيب محفوظ الذى جعل البعض يأكل باسمه ويتاجر به.

* * * *

فى سقوط المثقفين!

أسفت وخجلت وحزنت، وأنا أرى صديقى اللدود "جابر عصفور"، يجلس وسط مجموعة كتاب السلطة الذين التقوا على جلسة نميمة وتكفير وتحريض فى التلفزيون المصرى، امتدت من العاشرة مساء تقريباً حتى الواحدة والنصف من صباح اليوم التالى..

كان فريق الكتاب الذين تحول بعضهم إلى مذيع أو مقدم برامج، يناقش قضية طلاب الأزهر الذين اعتصموا فى جامعتهم بعد أن فصلت بعضهم، وشطبت المرشحين غير الحكوميين بمعرفة جهاز الأمن، وضيقت عليهم فى التعبير عن أنفسهم واختيار ممثليهم الحقيقيين، وجعلت مجالس التأديب سيفاً مسلطاً على رقابهم!

تبارى كتاب السلطة فى هجاء الطلاب والجماعة التى ينتمون إليها، وتجاوزوا إلى الدين نفسه، حيث راحوا يقدمون الفتاوى الماركسية والعلمانية والماسونية التى تؤول الإسلام، وفق اتجاهاتهم ومعتقداتهم، ولم يكتفوا بهذا التأويل الخاطئ والخبيث، بل أخذوا "يكفرون" الإخوان خاصة، والمتدينين عامة، ويرونهم إخوان الشياطين الذين يستحقون "جهنم" وبئس المهاد!

كان صمت صديقى اللدود "جابر عصفور" عن مقولات الجالسين فى "القعدة" التلفزيونية الهجائية، أمراً لافتاً، وكان الأغرب من ذلك هو مشاركته- غير الحميدة- بالكلام لاستئصال المعارضين للسلطة أو للنظام البوليس الفاشى..

والمفارقة أن الصديق اللدود، ما زال ينوح حتى الآن، لأن الرئيس السادات نقله مع بعض زملائه من اليساريين إلى وظائف أخرى خارج الجامعة. أما زملاؤه الإسلاميون فقد كانوا اللعبة المفضلة للجلادين فى

المعتقلات يسومونهم سوء العذاب، ويفعلون بهم ما تعف الوحوش عن فعله!

صديقى اللدود جابر، هو ابن السلطة المدلل فى العصور الثلاثة: عبدالناصر عينه معيداً بعد أن كان مدرساً فى إحدى مدارس الفيوم، وصار مقرباً من النظام سواء بالانتماء لتنظيماته السياسية أو عن طريق بعض أساتذته الماركسيين الذين كان يعتمد عليهم النظام فى الدعاية له وللاشتراكية المزعومة. وفى عهد السادات، اقترب من قصر الرئاسة بفضل أستاذته الراحلة سهير القلماوى التى كانت تشرف على حرم الرئيس فى رسالتيها للماجستير والدكتوراه، وكان مع معلمه العاشر لويس عوض وآخرين، ممن يقومون بتقديم خدماتهم للطالبة "جيهان رءوف" التى كانت تلقب بالسيدة الأولى فى مصر، وبعد مقتل السادات، صار صديقى اللدود الرجل الأول فى صناعة المخ المصرى حيث التصق بالوزير الحالى للثقافة، فصار لسانه وذراعه، كما انتمى إلى ما يسمى المجلس القومى للمرأة، ويكاد يكون هو العقل المدبر والكاتب المفكر لهذا المجلس وقيادته.. وبعد إحالته على التقاعد أو التفرغ كما يسمى فى الجامعة، فقد صدر القرار العلوى بالتمديد له فى المجلس الأعلى للثقافة أميناً عاماً أكثر من مرة، ومع أنه- فى ظل ظروفه الصحية الأخيرة- مرشح لمغادرة هذا المجلس، فهناك منصب ينتظره ليكون رئيساً لما يسمى بالمجلس القومى للترجمة، الذى سيكون بديلاً لقسم الترجمة فى المجلس الأعلى للثقافة..

وهذه المناصب وغيرها التى يحتلها صديقى اللدود، تجعله ليس فى حاجة إلى الدخول مع مجموعة "القعدة" التلفزيونية التى راحت تهجو الإسلام والمسلمين وتكفرهم صراحة، وتراهم خطراً على الأمن القومى،

وتبارك اعتقالهم وتعذيبهم، وتدعو إلى استئصال بقاياهم فى الجامعات والتعليم، والقضاء عليهم من المنبع، وتغيير مناهج التعليم فى المدارس والأزهر والجامعات وتفريغها من (التطرف) أى الإسلام أو الإظلام كما يفضل صديقى اللدود أن يسميه..

كنت أتصور أن جابر عصفور يملك من المال ما يغنيه عن النزول إلى مستوى الشتامين والهجائين فى "القعدة" التلفزيونية البذيئة، وكنت أتصور أن يكون كلامه علمياً له أسس وأصول يعرفها عضو هيئة تدريس فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة القاهرة، فهو أولاً شبع من المال سواء من إعارته إلى الكويت ست سنوات، ومن الكتابة فى الصحف النفطية التى تصدر داخل الخليج أو فى لندن، فضلاً عن الصحف المصرية وعلى رأسها الأهرام، وكلها تعطى وتدفع بالأجنبى والمصرى مكافآت غير عادية لرجل سلطة يملك المنح والمنع فى مؤسسات وزارة الثقافة، بالإضافة إلى ذلك فعضويته فى المجالس واللجان الثقافية وغير الثقافية لها مقابل كبير يضاف إلى راتبه الجامعى ومعاشه الوظيفى، ثم هو ثانياً يفترض فيه أن يكون مدافعاً عن الإسلام بحكم انتمائه إلى تخصصه العلمى فى قسم اللغة العربية وآدابها.. ولكن أن يجلس مع مجموعة لأصحابها أحوال وأقوال تضعهم فى خانة أخرى.. فهذا هو ما يجعلنا نصاب بالدهش والعجب والذهول!

أن يقف شخص طرد أباه أو أمه من الشقة التى ربياه فيها، أو شخص تاريخه مشين فى بلاد الغربة وهو يطارد السيدات، وتضطر المؤسسة التى يتبعها إلى دفع تعويضات كبيرة لتلملم فضائحه، أو شخص يشعر بمركب النقص لأنه كان ذات يوم مجرد أمين شرطة أو كاتباً فى أحد أقسام الداخلية، أو شخص كل مؤهلاته إعادة صياغة

تقارير لاظوغلى لفظياً صحفياً، أو ولد أحسن إليه صحفى راحل فعينه فى جريدة معارضة، فإذا هناك من يلتقطه ليكون عيناً على الصحيفة والحزب، ويكافأ بالتعيين فى مجلة حكومية، والذهاب إلى بلد عربى، ثم الصعود إلى جريدة يومية كبرى، ويحلم برئاسة تحرير جريدة حزبية حكومية.. وشخص.. وشخص.. ليهاجم الإسلام والمسلمين ويكفر الإخوان وغير الإخوان.. فهذا أمر طبيعى بالنسبة لهم، ولكنه ليس طبيعياً بالنسبة لجابر عصفور.

أمثال هؤلاء لا يجوز لجابر عصفور أن يجلس بينهم، وأن يجعل قاماتهم فى مستوى قامته، مهما كان ولاؤه للحكومة التى تفيض عليه بالمن والسلوى، وتجعله يستمتع بمذاق العسل واللبن، وتخصص له طائرة لعلاجه فى الوقت الذى يشقى فيه زملاؤه من هيئة التدريس سعياً للحصول على علبة دواء لمرض مزمن...

إن الشتامين من كتاب لاظوغلى، واليسار المتأمرك وخصوم الإسلام، ومرتزقة الكتابة الملونة، لا يليقون بجابر عصفور، ولا يستحقونه، مهما كان اختلافنا الفكرى معه، ومهما كانت درجة ولائه للسلطة البوليسية الفاشية، فهو صاحب فكر، وقارئ، وكاتب، أما هؤلاء فهم مجرد خدم بلا عقل ولا ضمير.. ولا يختلفون عن "رداحات" حوش بردق، وحوارى قاع المدينة.

* * * *

مثقف الأمة.. ومثقف الحظيرة!

أثار مرض الدكتور عبدالوهاب المسيرى (الذى توفى بعده)، أشجاناً كثيرة حول موقف المثقف وموقف السلطة. فمثقف مثل المسيرى ما كان ينبغى أن يتعرض للمهانة من أجل تدبير قيمة العلاج للمرض الذى أصيب به، وتكاليف الإقامة فى البلد الذى سيعالجه. وأقول "المهانة" لأنه إنسان ينتمى إلى هذا الوطن مثل أكثر من سبعين مليوناً، يدفعون الضرائب، ويقومون بواجباتهم تجاه الدولة، ولهم فى الوقت نفسه حق العلاج، الذى هو أبسط حقوق الإنسان..

السلطة فى مصر تمارس التمييز العنصرى بين أبنائها، فهى لا تعترف إلا بأقلية محدودة، تتولى مقاليد الحكم ومستلزماته، من حزب وحيد حاكم، ودعاية عريضة تقتضى ميزانية ضخمة، تروج له وتغطى على أخطائه وخطاياه، وتذيع أكاذيبه ومفترياته ضد خصومه ومعارضيه.. وهذه الأقلية المحدودة تعتمد على نمط من المثقفين والكتاب والإعلاميين، تنطق بلسانها وتدعو لها وتتبتل فى محرابها وتهجو كل مخالفيها، وشاغلها الأول الرئيس، هو العداء للإسلام والخصومة لدعاته، ولو كانوا من أكبر العقول فى البلد، لأن الإسلام هو الحرية ورفض الاستبداد والدعوة إلى العدل وحراسة القيم والمال العام.. ومن ثم، نشأ ما يعرف بكتاب السلطة أو كتاب لاظوغلى، وبجوارهم ما يعرف بمثقفى الحظيرة، أى الذين خضعوا لسلطان النظام البوليسى الغاشى، ودخلوا حظيرته- وفق تعبير الوزير إياه- وهؤلاء بالضرورة، صاروا جزءاً من الأقلية المحدودة التى تحظى بالامتيازات فى كل شىء: الثروة والسلطة والشهرة والدعاية والوجاهة.. ثم العلاج المجانى الفورى على نفقة الدولة بطائرات خاصة تذهب إلى أى عاصمة فى الدنيا

الصليبية الاستعمارية التى يتوفر فيها العلاج المطلوب، مع باقات الورود والمكالمات الهاتفية التى تستفسر وتسأل وتطمئن من كبار المسئولين وصغارهم!

مثقفوا الحظيرة إذاً، هم الذين يعملون فى ظل النظام البوليسى الفاشى، ويقفون ضد إرادة الأمة، وضد الحرية والعدل والأمل، ولا يعترفون بالتعدد أو التنوع أو التسامح فى إطار الوحدة الوطنية، مع أنهم لا يكفون عن ترديد الكلام عن التسامح واحترام الآخر، وأيضاً يثرثرون كثيراً عن الحرية والعدل والسلم.. ولكنهم فى حقيقة الأمر، يقصدون حريتهم وحرية رفاقهم وحدهم، ويطالبون لأنفسهم بكل الامتيازات التى يجب أن تكون قسمة عادلة بين الناس جميعاً فى الوطن البائس التعيس!

مثقفو الحظيرة حالة أنانية ساقطة بامتياز، وخاصة أنهم يضمون ما يعرف باليسار المتأمرك أو المارينز العربى، وطالبى الرزق بأية وسيلة، وعلى حساب أية قيمة.. ولذا يجدون استجابة سريعة ومباشرة من النظام البوليسى لعلاجهم أو تنمية حساباتهم فى البنوك..

أما مثقف الأمة، مثل عبدالوهاب المسيرى، فلا مكان له فى دولة النظام البوليسى الفاشى، لأن هذه الدولة لا تعترف بأمثاله- وهم كثر- حيث يأخذون مفهوم الثقافة مأخذاً آخر، يختلف عن مفهومها عند مثقفى الحظيرة. فمثقف الأمة، يوقن أن الثقافة دفع وعطاء والتزام، وقيمة وليست منفعة. وعبدالوهاب المسيرى دفع من عمره وماله من أجل أمته.. بحث عن الحقيقة فى الماركسية والعالم الغربى، ولكنه وجدها فى ظلال الإسلام وثقافته الإنسانية الراقية، فانحاز إليها بلا تردد، وراح ينافح عنها، ويكشف أكاذيب المرتزقة واليسار المتأمرك

ومثقفى الحظيرة، وأبطل مفاهيمهم الماكرة الخادعة بدءاً من الحداثة التى تعنى القطعية مع الماضى (الإسلام تحديداً)، وترتبط بإسقاط القيم النبيلة لحساب القيم المادية الإرهابية التى تجعل الغاية قبل الوسيلة. كما كشف عن ارتباطها بالبارود والدمار واستنزاف الشعوب وسرقتها ونهب ثرواتها... وانتهاء بتجميل الوجه القبيح للنظام البوليسى الفاشى تحت مسمى الدولة المدنية.

ومع أنه كان قد قارب السبعين (من مواليد ١٩٣٨) فقد خرج إلى الشارع مع زوجه ليتظاهر ضد الاستبداد والفاشية والجمهورية الملكية، وكاد الجلادون يفتكون به دهساً أو دعساً بمعنى أدق الأقدام!

لقد أنفق من ميراثه على إنشاء دائرة المعارف أو الموسوعة التى تتناول الصهيونية واليهودية، وهو عمل تعجز عنه أجهزة ومؤسسات رسمية، واستشاط الغزاة النازيون اليهود غضباً فى فلسطين المحتلة بسبب هذه الموسوعة، وشاطرتهم بعض الأجهزة الحاكمة عندنا هذا الغضب ضمنياً وإن لم تعلن ذلك، ولكنها عبرت عنه بأساليب أخرى، مثل التعتيم والتجاهل والإقصاء!!

لو ظل المسيرى ماركسياً، أو لو لم ينتج الموسوعة، لكان "تجمك المفضل" فى التلفزة والإذاعة والصحافة، والمؤتمرات والندوات ومؤسسات النشر الرسمية، ولكنه تمرد على الماركسية والسلطة، وتحدث عن الإسلام- العدو اللدود للنظام الأميركى وأتباعه- وصار منسقاً لحركة "كفاية"!

بالطبع، فإن إباء المسيرى دفعه لشكر من تعاطفوا معه، وأعربوا عن رغبتهم فى المساعدة لجمع تكاليف العلاج، وهذا يحسب له بكل تأكيد، ويعبر عن عفة نفس، وهمة عالية، وكرامة حقيقية لا تتوفر

لمثقفى الحظيرة وأشباههم، الذين تنقلهم الطائرات فوراً للعلاج على حساب الكادحين والبسطاء حيث لا يجدون شريط أسبرين مجانياً فى مستشفيات السلطة ووحداتها الصحية.

ذات يوم كتبت رسالة فى بريد "الأهرام"- أيام كان مفتوحاً للناس جميعاً- عن مرض عضال أصيب به الأديب الإسلامى العظيم (نجيب الكيلانى) وكنت قريباً منه، وتمنيت لو أن أحداً من المسئولين فى السلطة أو الصحة يبادر بعلاجه على نفقة الدولة، خاصة وأن الرجل أنفق كل مدخراته على الأدوية والتشخيص.. ولكنها كانت صرخة فى واد. وفى الوقت نفسه تقريباً، كانت طائرة تتحرك على حساب الدولة تنقل ممثلاً مشهوراً- رحمه الله- إلى عاصمة أجنبية للعلاج على نفقة الدولة، وكان المذكور يملك الملايين من أفلامه ومسلسلاته وشركات إنتاجه!

أما نجيب الكيلانى، فقد تكفلت دولة عربية بعلاجه فى أرقى مستشفياتها التخصصية ووفرت له الرعاية وتذاكر السفر مع مرافقيه، اعترافاً بفضله وقيمته اللتين ينكرهما مثقفو الحظيرة من خدام النظام البوليسى الفاشى!

والمفارقة أن هؤلاء الخدام، لا يوجهون كلمة شكر إلى الدولة العربية التى ترعى مثقفى الأمة دون من أو أذى، ويوجهون إليها بدلاً من الشكر السهام الطائشة المسمومة، دون أن يقولوا للنظام البوليسى الفاشى الذى ألبسهم البيادة البوليسية والبالطو الأصفر وجعلهم يمسكون العصا الخيرزان، عيب.. إن الواجب عليك أن ترعى كل المواطنين المجهولين قبل المشهورين، بدلاً من التشفى والانتقام

الرخيص من الخصوم، والإنفاق السفيه على المؤتمرات الحريمى التى لا جدوى منها، وتغطياتها الإعلامية التى تتكلف الملايين!

عبدالوهاب المسيرى كان صاحب حق فى العلاج بوصفه مواطناً قبل أن يكون مفكراً، ومثل بقية المصريين، ولكن الذين يتكلمون عن "المواطنة"، يقصدون الأقلية المستبدة الحاكمة وخدامها.. وهنيئاً لمثقفى الحظيرة.

* * * *

مثقفو الحظيرة.. وفوبيا الإسلام!

استقبلت العوالم والغوازى معالى الوزير الفنان فى مهرجان السينما بالزغاريد والهتافات من قبيل "الله عليك يا كبير" و"يا كايدهم يا روقة" و"إحنا معاك على طول"، ولم يبق لهن إلا أن يتحزمن ويرقصن ابتهاجاً بانتصار معاليه على الظلاميين والظلاميات "المعاقات ذهنياً"، المؤمنات بالفكر الصحراوى الظلامى!

موقف العوالم والغوازى اللائى ظهرن بملابس كاشفة أكثر منها ساترة، أو بتعبير "عادل إمام"- لابسات من غير هدوم- لم يزعجنى، فهذا أكل عيشهن، اضطررن إليه فى ظل الحاجة التى تتطور إلى خضوعهنّ لتجار الأفلام والمسلسلات، وبريق الشهرة الذى يجعلهن أو يجعل معظمهن يضحين بأشياء كثيرة، فى مقدمتها البيت والأسرة والإنجاب والاستقرار.. وقد كان منظرهن فى استقبال الوزير معادلاً لموقف الشعب المصرى الذى وقف إلى جانب دينه وفريضة الحجاب بالمعنى الشائع (كشف الوجه واليدين).

لم أحزن لموقف العوالم والغوازى- ومعذرة للمصطلح فهن لا علاقة لهن بالفن الحقيقى- ولكن الذى أحزننى هو موقف من أطلقوا على أنفسهم اسم المثقفين واستنكروا موقف الشعب المصرى فى بيان أصدروه ونشروه، وانضموا إلى جانب الوزير، واحتكروا لأنفسهم صفة "الطليعة"، ولا ندرى من الذى أعطاهم الحق أن يكونوا طليعة الشعب المصرى أو طليعة القوى المناصرة للحرية، بينما هم فى الواقع المرئى الملموس ألد أعداء الحرية وخصومها، وخاصة فيما يتعلق بالإسلام وحرية المسلمين فى التعبير عن أنفسهم وعن عقيدتهم. فهم لا يريدون أن يكون للإسلام بمعناه الوارد فى القرآن الكريم والسنة وإجماع الأمة

على مدى أربعة عشر قرنا؛ وجود فى الواقع الاجتماعى. إنهم يريدون "إسلاماً" أميركياً أو صهيونياً أو ماركسياً حسب رغبة القوى الخارجية التى يدينون لها بالولاء والفكر. وإذا قيل لهم إنهم يطالبون بحرية التعبير وحق الناس فى التعبير عن أفكارهم وعقائدهم، ومن حق المسلمين أن يعبروا عن ذاتهم ودينهم، وصفوا ذلك بأنه وصاية على الناس، واحتكار للحقيقة المطلقة، وردة إلى الوراء، ورجعية وتخلف وظلامية.. إلى غير ذلك من النعوت القبيحة التى يطلقونها على الإسلام والمسلمين.. فهم يرون أنفسهم الذين يملكون العقل والاستنارة والتقدم. أما الإسلام فهو بمفهومهم الإظلام، والمسلمون هم الظلاميون، وما هجاؤهم الدائم والمستمر للجماعات الإسلامية وعلماء الدين الإسلامى والظواهر الإسلامية المختلفة إلا ترجمة حقيقية عن عدائهم المطلق لكل ما هو إسلامى، ومع ذلك يتبجحون ويتهمون الناس بأنها تكفرهم، وأن كل مسلم صار "مكفراتياً"، وأن الثقافة الإسلامية لا تملك غير التكفير والتحريض على القتل.

وفى المقابل فهم لا يرون فى حصار الإسلام وملاحقة المسلمين، وإلقاء ثلاثين ألفاً فى المعتقلات الوحشية طوال ربع قرن وحرمان المتدينين من الوظائف الأساسية فى الجيش والشرطة والإعلام والجامعة والتعليم العام والثقافة والنوادى الرياضية والنقابات المهنية والصحافة والبنوك و... لا يرون فى ذلك مصادرة لحق من حقوق المواطنة أو حقوق الإنسان، ولا يجدون غضاضة فى تجديد حبس المعتقلين الإسلاميين وتقديمهم لمحاكمات استثنائية، ولا ينزعجون لقوانين الطوارئ والأحكام العرفية.. هذا كله وغيره لا يعنى "الطليعة" التى فاخر

الوزير الفنان بأنه أدخلها "الحظيرة" ولا أدرى بم يقصد معاليه بالحظيرة- أقصد من أى نوع من الحظائر التى يعرفها الناس.

إن علماء الإسلام ليسوا أوصياء على الإسلام يا مثقفى الخطيرة، ولكن من واجبهم أن يبينوه للناس ويشرحوه كما تعلموه من القرآن والسنة وإجماع الأمة.. مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من أصحاب المهن الأخرى. وإذا كان الإسلام علاقة وثيقة بين العبد وربه كما يقول بيانكم "الحظائرى" فمن واجب علماء الدين أن ينهضوا بواجبهم، وخاصة إذا تطوع السادة اليساريون المتأمركون وأشباههم من مثقفى الحظيرة بتفسير الإسلام تفسيراً خاطئاً أو مغرضاً.

لقد قلت فى مناسبات عديدة حول تصريحات الوزير التى جعلت الحجاب ردة إلى الوراء، إن المسألة ليست الوزير، وليست تصريحاته، ولكنها بالونة "اختبار" لتمرير قوانين وأشياء معادية للشعب البائس المسكين من جانب النظام البوليسى الفاشى الذى يؤيده مثقفو الحظيرة، ويستمتعون بخيراته وغنائمه وأنفاله.

وبالفعل فقد ارتفعت الأسعار فى أزمة الحجاب ارتفاعاً فاحشاً؛ حتى وصلت الخضراوات إلى أسعار غير مسبوقة: الطماطم ٦جنيهات، البصل ٥جنيهات، الثوم٧جنيهات، البطاطس ٣ جنيهات، الخيار ٥جنيهات، الأرز ٣جنيهات.. وانخفض سعر القطن أكثر من ٤٠٠جنيه بالنسبة للفلاحين الفقراء، ورفع تجار الحديد من أركان السلطة سعر الطن فى المقابل ٥٠٠ جنيه زيادة على سعره الأصلى حتى وصل إلى ٣٢٠٠جنيه، كما وصل سعر الخشب إلى ١٩٠٠جنيه، وقس على ذلك أصنافاً كثيرة، فضلاً عما يحاك فى المجال التشريعى للمزيد من تقييد حرية الشعب وقهره وإذلاله وإخضاعه للحكم المطلق من خلال واجهة

ديكورية مزيفة، تقول للسذج إنها ديمقراطية.. أو أزهى أنواع الديمقراطية..

ولكن المرعب فى موقف المثقفين الحظائريين، هو تخويف الناس من الإسلام مثلما كانوا يخيفونهم من قبل بالرأسمالية، أو الإمبريالية ويرون فيها قهراً للعمال والكادحين وزيادة فى تسلط الأغنياء والموسرين، واستنزافاً لموارد الشعوب والمستعمرات.. اليوم يرون الإسلام معادياً للحرية والبهجة والفرح والنور.. أما الدولة البوليسية الفاشية، فهى رمز كل خير، ومصدر كل عطاء، ومنبع كل ثروة، ولذا يخدمونها بكل ما ملكت أيديهم، ويهددون الخطر الذى يهددها- من وجهة نظرها- وهو الإسلام، الذى يرسى قيم العدل والمساواة والشورى، ويقطع أيدى اللصوص الكبار!

مثقفو الحظيرة- مع أن معظمهم من الموظفين فى "تكية" الوزير التى تسمى وزارة الثقافة- يؤيدون الوزير ويصمون الإسلام بالإظلام، ويستمتعون بخيرات "التكية"، ولو كان بعضهم لا علاقة له بمفهوم الثقافة ومضمونها، ولأن الوزير وجد ١١٢ مثقفاً- كما يسمونهم، يصدرون بياناً يؤيده ضد "فوبيا الإسلام"، فقد أصدر ٢٧٠ مثقفاً حقيقياً معظمهم أساتذة جامعيون بياناً آخر يطلبون إقالة الوزير لأنه تجاوز حدوده، ومع ذلك لم نجد صدى لهذا البيان فى أجهزة الثقافة والإعلام، والسبب بسيط جداً، وهو أن المثقفين خارج الحظيرة لا يحق لهم أن يكون لهم وجود فى هذه الأجهزة. فالحظيرة هى جواز المرور إلى سماع صوتك إذا أردت أن يسمعك الناس. وإلا فإنك فى هذه الحال ستعانى ما يعرف "بالإقصاء" و"الحرمان" من كل شىء: النشر، المشاركة، التفرغ، المهارج، المحاضرات، الندوات، المعارض، الأكاديمية، الجماهيرية، .... الحظيرة.. ويا لها من حظيرة!

ذهبت وأنا عمر.. وجئت وأنا عمر!

فـى أول أيـام العـام الهجـرى الجديـد ١٤٢٨هـ، قـدم التلفزيـون المصرى حسنة من حسناته القليلة، بإذاعة الحلقات الأخيرة من مسلسل عمـر بـن عبـدالعزيز، رضـوان الله عليـه. وهـذا المسلسـل مـن الأعمـال العظيمـة التـى كتبهـا الراحـل الموهـوب "عبدالسـلام أمـين" وقـام بتمثيلـه مجموعـة مـن الممثلـين الممتـازين فـى مقـدمتهم رشـوان توفيـق ونـور الشريف وعبدالرحمن أبوزهرة ومديحة حمدى..

لا يمل المشـاهد مـن الجلـوس أمـام الشاشـة لمتابعـة وقـائع أحـداث المسلسل، مهما تكررت إذاعتها أو بثهـا، ففيهـا مـا يشد ويجذب ويمتـع، إنهـا حيـاة الخليفـة الراشـد الخـامس، الـذى حكـم ثمانيـة وعشـرين شـهراً، حول الدولة من خلالها إلـى مخـزن للخيـر ومصدر للعدل ومحيط للأمن ومنبع للإيمان يفيض على الدنيا كلها، ويقدم صورة رائعة، بـل أكثـر مـن رائعة للإسلام حين يشيع الطمأنينة فـى النفوس، ويبعد شـبح الفقر عن الملايين فـى المشـارق والمغـارب، ويخضـع لسطوة الحـق طغـاة وجبـابرة ولصوصاً!

تـأتى مـن مصـر مربيـة "عمـر بـن عبـدالعزيز"، وتصـل إلـى دمشـق، وتسـأل عن دار الخليفـة لتشـكو إليـه فقرهـا وعوزهـا، فـإذا بهـم يرشـدونـها إلـى بيت متواضـع فـى نـاحيـة من نواحـى دمشق، فتظن أن الـذين أرشـدوها يسـتهزئون بهـا، فتقـول لـهم: إن دارهـا المتواضـعة فـى أحـد أحيـاء القـاهرة أفضـل من هـذه الـدار، ويـدخل عمـر وهـى تحـتج علـى مـن أدخلـوهـا الـدار المتواضـعة، ويقـول لـهـا: لقـد صـدقوا. فهـى دار الخليفـة، وأنـا الخليفـة.. وتظن المرأة أنـه يتابـع حملـة الاسـتهزاء.. فتقـول لـه: أتسخر منـى؟ فيقـول لـهـا: ألا تعرفيننـى؟ وتسـأله: مـن أنـت؟ فيقـول لـهـا عمـر: أنـا عمـر بـن

عبدالعزيز، الخليفة، فيزداد اندهاش المرأة، لأن الذى تراه أمامها شخص بسيط، يلبس ثياباً خشنة، وقد عهدت عمر، يلبس الحرير، ويغير كل يوم ثوباً، ولكنه تتحسس يديه التى عرفتها مذ كان صغيراً، وتضع يدها على جبهته فترى أثر الجرح الذى يميزه، والذى أشار إليه جده الأعلى "عمر بن الخطاب" فى نبوءة صدقت: "من هذا الأشج (المجروح) الذى يأتى من نسلى، ويرثنى من بعدى".. عرفت المرأة الأشج، وتأكدت أنه هو عمر الذى ربته فى دار الولاية بمصر..

وتزداد دهشة المربية حين يأتون لها فى دار الخلافة بطعام بسيط متواضع.. وتكثر دهشتها حين ترى زوج الخليفة بسيطة تشبه فقراء المسلمين فى ملبسها وحياتها!

ويأمر لها عمر بعطاء من بيت المال يكفيها فى رحلتها، ويؤمن لها بناء بيت يليق بها بدلاً من بيتها المتداعى فى القاهرة، ليكون أفضل من بيته وأقوى وأجمل!

ويلتقى عمر بن عبدالعزيز بشيخه ومستشاره الأمين "رجاء بن حيوة"، وتتلاشى الشمعة التى تضىء المكان، فيذهب عمر بنفسه ليضىء شمعة أخرى، ويرفض أن يقوم رجاء بهذا الأمر.. وحين يتعجب رجاء دهشاً من هذا الأمر، فإن عمر يقول له ببساطة شديدة: "ذهبت وأنا عمر.. وجئت وأنا عمر"!

وكان ابن المهلب صهر الحجاج يتولى بلاد ما وراء العراق، وكان طاغية شرساً، متجبراً، يسخر منصبه للكسب والتربح، ويطارد كل من يعترضه، ويلقى به فى السجن، ويعذبه، ويبقيه إلى أجل غير مسمى. وكثرت الشكاوى ضده، فاستدعاه عمر إلى مقر الخلافة، فجاء بهيله وهيلمانه وأبهته وحراسه، وهداياه وأمواله، وظن أن ذلك سيجعل له

مكانة عند خليفة المسلمين تفوق بقية الخلائق، ولكنه فوجئ بما لم يكن يدفع، فقد جرده عمر من كل هذا، وأبقاه وحيداً، وحاسبه بالسؤال الشهير: من أين لك هذا؟

ولكنه استعظم أن يسأل أو يحاسب. ويرد بغطرسة: لقد تاجرت وزرعت واستثمرت، وملأت الأسواق بما يحتاجه الناس إن لم يكن مجاناً فبثمن قليل! ويرد عليه الراشد العمرى:

- ألم يصادر الحجاج أموالك؟ ثم أنى لك بمعرفة الأسعار رخيصها وغاليها؟ ويأمر عمر بإيداعه السجن، وضم أمواله وهداياه إلى بيت مال المسلمين، وإطلاق سراح سجنائه فى ولايته!

وعندما يعرض "رجاء بن حيوة" بريد الولاة (المحافظين بلغتنا هذه الأيام)، ويقرأ عليه رسائلهم، فإنه يقرأ عليه رسالة من والى اليمن أو عامل اليمن يطلب فيه "ميزانية" ليشترى ورقاً من مصر ليكتب عليه الرسائل الرسمية.

وينظر عمر فى الرسالة فيراها على ورقة كبيرة، فيطلب من رجاء أن يكتب إليه أن يختصر فى رسائله، ويكتبها على ورق صغير، توفيراً لأموال الدولة.

ويكتب إليه والى آخر يطلب زيادة فى الاعتمادات كى يبنى سوراً يحمى المدينة ويحصنها، ويعبد طرقها، فيرد عليها: حصن مدينتك بالعدل، وعبد طرقها بالقضاء على الظلم والفساد!

ويكتب إليه ثالث أن كثيراً من أهل الذمة (غير المسلمين) قد دخلوا فى الإسلام، وقلت الموارد بسبب رفع الجزية عنهم، فيرد عليه: بأنه يتمنى، لو أن كل أهل الذمة دخلوا الإسلام، واشتغل هو ومن معه عمالاً وراء المحاريث لخدمة الإسلام والمسلمين!

لم يسلم الراشد العمرى من التآمر، ولم يسكت الفاسدون المفسدون فى الداخل والخارج عن محاولة إزاحته وإلحاق الأذى، فقتلوا ابنه "عبدالملك" بالسم، وهو فى ريعان شبابه وصباه، وقتلوه هو الأخر بالطريقة ذاتها، ولكنه ظل حتى قبض إلى بارئه، يمثل النموذج الأعظم والأروع للحاكم العادل الورع التقى، ولا نزكيه على الله، والله حسيبه، وقبيل وفاته أرسل إليه– إمبراطور الروم– عدو المسلمين اللدود، كل الأطباء الذين يمكنهم معالجته تكريماً له واعترافاً بكرم أخلاقه، وحسن معاملته، ووفائه بوعوده، واحترامه لمواثيقه، ولكن الأطباء لم يصلوا إلا بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى!

وكان أجمل ما اشتمل عليه المسلسل هو ذلك النشيد المعبر عن عمر؛ والذى صاغه الموهوب الراحل عبدالسلام أمين فى المقدمة والختام:

ها هو العدل تجسد
ها هو الحق تجدد
ها هو الحلم الذى ظل صداه يتردد
فى نفوس الفقراء
وقلوب الضعفاء
وقيود السجناء
... ...
....
الراشد العمرى على الصراط قوى
وبالفقير رحيم وباليتيم حفى ...

فى ثمانية وعشرين شهراً، اعتدل ميزان الدولة، عادت سيرتها الأولى الراشدة، تراجع الظلم والنهب. توافقت الأمة، أمنت

الأغنام على نفسها أمام الذئاب، أو عاشت الذئاب مع الأغنام في سلام!

لماذا نحتاج إلى سيرة عمر الجد وعمر الحفيد؟

لأننا نحتاج إلى العدل والأمن والكرامة.. والدولة المدنية الإسلامية التى تساوى بين مواطنيها، ولا تجعل الأقلية الفاسدة أو الأقلية المستقوية بأعداء البلاد فوق الأكثرية المظلومة المقهورة!

وليت مثقفى الخطيرة يكفون عن هجاء الإسلام، وتملق خصومه، وليتهم يتقون الله فيما يرددونه من أكاذيب سادتهم ومستخدميهم عما يسمى مخاطر الدولة الدينية، فالإسلام لم يعرف الدولة الدينية الكهنوتية على امتداد تاريخه الطويل، ولكنه ابتلى بالدولة البوليسية الفاشية التى لا تعرف الحق ولا العدل ولا كرامة الإنسان المسلم.. وليتهم يقرءون سيرة العمرين، ويأمرون سادتهم وكبراءهم أن يقلدوهما حتى يفيض الخير والأمن والإيمان على القلوب والنفوس والمجتمع وحتى يقول الحاكم العربى:

ذهبت وأنا عمر.. وجئت وأنا عمر!

*　*　*　*

نجيب محفوظ.. وكهنة آمون!

فى عيد ميلاد الكاتب "نجيب محفوظ" انقلبت الدنيا ولم تعتدل.. الكل يتبارى فى الحديث المكرور عن الرجل وحياته وأدبه وجوائزه وآرائه وأفلامه ومسرحياته.. لم يترك أحد مجالاً يمكن تناول "نجيب محفوظ" من خلاله إلا تناوله، تفتح التلفزة أو الإذاعة أو الصحف أو المجلات، أو تدخل المحاضرات أو الندوات أو المؤتمرات أو الملتقيات إلا كان "نجيب محفوظ" حاضراً وقائماً وشاخصاً.. صار "نجيب محفوظ" هو محور الإعلام والثقافة بل والسياسة، وكأن مصر لم تنجب غيره ولن تنجب غيره!!

الإلحاح على تناول "نجيب محفوظ" بهذه الصورة، يحدث تأثيراً عكسياً لدى الجمهور، فيولد لديهم انطباعاً مغايراً عما يريد "كهنة آمون" توصيله إلى الناس، إنهم يبتغون أن يكرموا الرجل، ويثبتوا جدارته فى مجال الأدب والحياة والمجتمع، ويردوا على من يختلفون معه أو مع بعض أفكاره، فإذا بهم يحولونه إلى "إله" صغير يجب أن يعبده الناس، ويسجدوا له ويركعوا، ويسبحوه ويقدسوه.. وهذا ما يدفع الجمهور إلى رد فعل معاكس، قد تتفاوت درجته، ولكنه فى مجمله يسىء إلى الرجل، ويؤلب عليه قطاعات كبرى، ترى فيما يفعله "كهنة آمون" إرهاباً أو استبداداً أو شوفينية تجب مقاومتها، أو الوقوف فى مواجهتها، مهما كانت النتائج!

إنهم يقدمونه بشيراً بالعلمانية فى دولة إسلامية، يرفض أهلها الانسلاخ عن دينهم وهويتهم، ويضعونه بوصفه نهاية الأدب والأدباء فى مصر والعالم العربى، ويصورنه مقاتلاً ضد الديكتاتورية والاستبداد، والحق أن الرجل يعلن باستمرار أنه ينتمى إلى حزب "الوفد" القديم بزعامة سعد زغلول، وأنه "علمانى" النزعة، وإن كان يرى أن الإسلام لا

بد من احترامه، ولا يجد غضاضة فى التعامل مع اليهود الغزاة، طالما لا نستطيع أن نستخلص حقوقنا منهم..

من حق "تجيب محفوظ" أن يؤمن بكل ذلك ويدافع عنه، ولكن ليس من حق "كهنة آمون" أن يقتعونا بإتباع ما يؤمن به "تجيب محفوظ" ويعتقده. نحن جمهور المسلمين لنا منهجنا ومعتقدنا، ولسنا فى حاجة إلى من يقنعنا بالعلمانية أو الانتماء إلى حزب "الوفد" أو أى حزب آخر، ثم إن الوجود النازى اليهود الغاصب لفلسطين لا يلزمنا بالخضوع للإرادة الصهيونية والتعامل معها مهما بلغ طغيانها وجبروتها. وإذا كنا ضعافاً اليوم؛ فإن الواجب يفرض علينا أن نأخذ بالأسباب الموصلة إلى القوة لنوقف الزحف النازى اليهودى، واستخلاص الحقوق من بين أنيابه الوحشية.

و"تجيب محفوظ" حلقة فى سلسلة طويلة وممتدة من الكتاب والأدباء العرب الذين يتتابع ظهورهم مع حركة الحياة فى المجتمع. لقد تعلم "تجيب" ممن سبقوه، وكانوا حشداً ضخماً من الشعراء والرواة والعلماء الذين سبقوا على امتداد أربعة عشر قرناً من الزمان هى عمر "الإسلام"، سبقها قرن ونصف قرن من الزمان عمر الجاهلية العربية أنتج أدباً خصباً، لا ينكر "تجيب" أنه تعلم منه واكتسب لغته وأسلوبه وأفكاره ورؤاه. وإن كان ذلك لا ينفى بالطبع استفادته من آداب أخرى فى لغات أخرى..

لقد رافق نجيب محفوظ فى مسيرته عدد ضخم من الأدباء والشعراء- لعلهم كانوا أكبر عدد عرفه العرب فى العصر الحديث، من حيث رقى المستوى الأدبى والشعرى، شكلاً ومضموناً، لغة وتصويراً، أسلوباً وأداء، ولكن كهنة آمون لا يذكرون أحداً منهم، وإذا ذكر فإن ذكره يأتى بجهد خاص، وفى إطار ضيق ومحدود. وسوف أكتفى بذكر

بعض الأسماء التى جايلت "نجيب محفوظ" أو جاءت بعده بقليل، فى المجال القصصى وحده. أذكر: محمد فريد أبوحديد، محمد سعيد العريان، محمود تيمور، يحيى حقى، على أحمد باكثير، عبدالحميد جودة السحار، عادل كامل، محمد عبدالحليم عبدالله، محمود البدوى، عبدالمنعم الصاوى، يوسف السباعى، نجيب الكيلانى، وغيرهم ممن تضيق الصفحات بذكرهم لكثرتهم وتنوع إنتاجهم الأدبى، وتعدد مذاهبهم، ولكن "كهنة آمون" لا يذكرونهم أبداً، ولا يحتفلون بأعياد ميلادهم، ولا يبشرون بأفكارهم ورؤاهم، ولا يرون لهم حقاً فى أن تعرفهم الأجيال الجديدة.. بل إن عملية تعتيم مقصودة تجرى تجاه كثير منهم لأسباب عقدية وفكرية، كما يجرى حذف ما يتعلق بهم من دراسات ومقالات وأخبار.. ولا ريب أن "كهنة آمون"- وهم خليط من أصحاب المصالح والمذاهب والعقائد يجمعهم الولاء للسلطة والغرب الاستعمارى غالباً- لا يرون فى أدباء مصر أو العالم العربى الذين يتجاوزون دائرتهم الضيقة المحدودة، ما يستحق الذكر أو الشكر، وخاصة إذا كان هؤلاء الأدباء ينتمون إلى الدائرة الإسلامية العريضة. إن "كهنة آمون" تعودوا أن يرددوا- بعد اسم نجيب محفوظ- أسماء مجموعة من قبيلتهم معظمها يمث بصلة إلى ما يسمى الآن "اليسار المتأمرك"، وهذه المجموعة هى التى يرددها بالتبعية المذيعون المسطحون، والمذيعات الجاهلات فى لقاءاتهم الثقافية والأدبية بالإذاعة والتلفزة، فتترسخ فى أذهان القراء، والمتلقين بصورة آلية.. ومن ثم لا يعرفون غيرهم، ولا يطلعون على كتابات لسواهم.. وهكذا تتمخض اللعبة الرخيصة لأدباء السلطة عن تحديد مجموعة أدبية بعينها بجوار نجيب محفوظ، يتداولها المجتمع ولا يخرج عن حدودها!

هذه المجموعة التى تجاور "نجيب محفوظ"، ترضى عنها السلطة، وتستخدمها لأغراض سياسية وثقافية معينة، وتغدق عليها كثيراً من العطايا والهبات، وتمنحها فرصة الظهور والتلميع فى وسائلها وأجهزتها الدعائية. وهذا أمر طبيعى، يعيدنا إلى ما يزعمه "كهنة آمون" حول موقف "نجيب محفوظ" من السلطة، ومقاومته للديكتاتورية، والاستبداد. فقد كان "نجيب محفوظ" يتحرك بعقلية "الموظف المصرى" البيروقراطى، الحريص على وظيفته، فلا يواجه رؤساءه، ولا يتمرد على الوظيفة. وإن كان يعبر عن أمانيه وما يعتمل فى داخله إذا انفرد بمن يأمن لهم، أو يضمن ألا يشوا به.. هكذا كان موقف "نجيب محفوظ" فى تعامله مع السلطة فى كل العهود.. فقد كان فى أحاديثه ولقاءاته الإعلامية والصحفية والثقافية يمتدح السلطة ويثنى عليها، ولم يوجه إلى أى منها نقداً أو هجوماً مباشراً. لقد ادخر النقد والهجوم لرواياته وقصصه من خلال الرمز والإيحاء. المرة الوحيدة التى تجرأ فيها، ووقع على المذكرة التى كتبها الأدباء والمثقفون فى عام الضباب (١٩٧٢) قبل حرب رمضان، وكانت تدعو السادات إلى الصلح مع العدو أو شن الحرب، وإنهاء حالة عدم السلم وعدم الحرب، وسرعان ما تم معالجة آثارها، عقب الحرب، وعاد نجيب ليجلس على حجر السلطة من جديد بعد فترة قصيرة سكتت فيها أجهزة الدعاية عن الحديث حوله!

إن المشكلة الحقيقية ليست فى "نجيب محفوظ" وعلاقته بالسلطة، بقدر ما تكمن فى "كهنة آمون" الذين أعمتهم مصالحهم الخاصة ومنافعهم الذاتية عن رؤية مصالح الوطن والأمة، فاندفعوا بحكم أنانيتهم وكراهيتهم الشديدة للإسلام والمسلمين، إلى الترويج "للواحدية" فى الأدب والسياسة جميعاً!

مرثية لسينما عصر البلاستيك؟!

مرغماً؛ شاهدت "اللمبى" ومعه مجموعة أخرى من أفلام الفترة، فأيقنت أن فن السينما أو الفن السابع يحتاج إلى مرثية طويلة لا أقدر على كتابتها، وإن كانت المرثية الطويلة فى حقيقة الأمر يجب أن تتوجه إلى العلاقات الاجتماعية السائدة فى العقود الأخيرة، التى تحولت إلى علاقات معدنية أو بلاستيكية، تعبد المادة وتسجد للدولار وتخشع أمام القوة البشرية والجبروت الإنسانى من دون الله.

"اللمبى" نموذج شائع لشباب البطالة والغيبوبة سواء على مستوى البطل أو من يشاركونه البطولة، وهو متسق فنياً فى الإطار الذى وضع فيه، حيث يقوم على فن المبالغة أو الكاريكاتير من خلال سخرية مريرة وقاتلة تثير الضحك على مواقف وأحداث كان ينبغى أن تقتلنا حزناً وكمداً، فى واقع يسعى فيه الجميع إلى إشباع ذواتهم على حساب القيم والأخلاق، المهم هو الحصول على الدولار "خللى الدنيا تولع فلوس!" كما يغنى اللمبى منتشياً وقد امتلأت يده بالدولارات نظير تأجير الدراجات للسياح فى شرم الشيخ، ولكن الدولارات تغرق مع اللمبى وأمه فى المياه، وحين يفكر فى إعادة مهنة أبيه (بيع الكبدة) وتبدأ الآمال تنتعش كى يتزوج ويسدد ديونه تأتى شرطة المرافق لتطيح بعربة الكبدة وبقية الباعة الذين يفترشون الشارع ويتحطم حلمه مرة أخرى، ويقع تحت ضغط "المرابى" الذى يقرضه بشيكات على بياض ويهدده بالحبس من حين لآخر، وتبدو خطيبته على وشك الضياع أو الاختطاف حيث يسعى مدرس خصوصى معه خمسة عشر ألف جنيه تدير رأس أبيها وتجعله يغير التزامه أمام اللمبى، ولكن الموسيقار المغمور (باخ) ينبه اللمبى وأمه إلى "النقوط" الذى تدين به الحارة للمبى ويمكن أن يحل مشكلته، ولكن والد الخطيبة (التى تملك نصيباً وافراً من البجاحة مثل

العديد من فتيات اليوم) يسعى إلى إفشال هذا الحل، ويدبر خطة لإقناع ابنته بسوء سلوك اللمبى؛ حيث يأتى بعاهرتين تسهران معه ومع صديقه "باخ"- الموسيقار المغمور- فتقرر الفتاة ترك اللمبى، ولكن أمه تستخدم أسلحة المرأة لإقناعها بإتمام الزفاف وتجميع النقوط، ويتمكن اللمبى من الفوز بعروسه.

السخرية المريرة والمبالغات المضحكة/ المبكية، صورة لما يحدث فى واقعنا الجديد المتهرئ الذى يحتاج إلى نجدة عاجلة تعيده إلى صوابه، وتمنح العلاقات الإنسانية وضعها الطبيعى الذى يصفيها من الشوائب المعدنية والبلاستيكية التى حولت البشر فى مجتمعنا إلى مجرد آلات تفتح أفواهها لتأكل وتشرب، ثم تضرب فى كل اتجاه لتقبض على المادة بأى ثمن. والذين غضبوا من قصة "اللمبى" وأغانيه معهم حقّ، وكنت أود أن ينصب سخطهم على الأسباب التى جعلت هذا العاطل الغائب أو المغيب عنواناً على شبابنا وواقعنا الراهن.

لا أريد الدخول فى المجال الفنى فأنا لا أفهم فيه، ولكن الذى أود أن أشير إليه هو مدى ما يتمتع به "اللمبى" البطل من صحة أو عافية قوية؛ جعلته يجرى ويتعارك ويغنى ويتحمل ضربات الناس والزمان، ويبدو فى النهاية أقوى من الأحداث التى مر بها، ويجعل الضحك عليه ومنه فى مثل هذه القوة، وإن كان ضحكاً سطحياً يخفى تحته بحاراً عميقة من الأحزان!

أما "أمير الظلام" عادل إمام، فينعطف نحو موضوع مهم، يهمله السينمائيون المعاصرون ويعالجه فى إطار قضية عامة، وإن كانت السينما القديمة قد عالجته بصورة فردية كما رأينا فى فيلم "شمس لا تغيب" الذى مثلته "زبيدة ثروت" وفيلماً أخر قامت "سميرة أحمد" ببطولته

مع عمر الحريرى، وكانت البطلتان غير مبصرتين. "عادل إمام" وهو يؤدى دور طيار متقاعد فقد البصر فى حرب رمضان يعيش فى "دار النور" التى تضم مجموعة من ذوى البصائر، ويسعى إلى التعبير عن مطالبهم بوصفهم شريحة لها مطالب وحقوق. ومع نبل الغاية التى يهدف إليها الفيلم إلا أن الوسيلة كانت غير موفقة وغير مقنعة، فالحفلات الباذخة التى يحضرها، وقيادة طائرة وهو لا يبصر، ومواجهة عصابة تدبر اغتيالاً لشخصية كبيرة، جاءت فى إطار مبالغات أسطورية، تجعل القضية الأساسية وهى مطالب ذوى الاحتياجات الخاصة تتراجع وتبدو أمراً ثانوياً يثير الضحك أحياناً فى مولد "سيدى العريان"! (هناك أوجه شبه مع فيلم الكيت كات).

ولا داعى للحديث عن "محامى خلع" فقد امتلأ بالحوار البذىء الهابط والإسقاطات الرخيصة على بعض المفاهيم الإسلامية، مع أن فكرته لا بأس بها وكان يمكن تطويرها دون حاجة إلى البذاءة!

فيلم "مافيا" يبدو منذ العنوان متماهياً مع السينما الأمريكية وتصورات "السوبرمان" الذى لا يهزم. لقد أراد الفيلم أن يبرز دور عناصر الأمن فى التصدى للعمليات الإرهابية التى يقوم بها أعداء الأمة، ويقدم نموذجاً لهذا الدور فى القضاء على عصابة كانت تسعى لاغتيال "بابا الفاتيكان" فى أثناء زيارته لمصر قبل عامين- ولا ريب أن فكرة تحويل البطل من المجال السلبى حيث لا يحب وطنه ولا يهتم بالانتماء إليه، إلى المجال الإيجابى الذى يقوم فيه بتقديم روحه فداءً له، هى فكرة جيدة ونبيلة، ولكن الأداء الذى يعتمد على شخصية "السوبرمان" قلل من قيمة الصورة الفنية المقنعة. صحيح أن الفيلم لجأ إلى التقنيات الحديثة من وسائل اتصال وتصوير وكشف، ولكنه ظل

متماهياً مع الروح الأمريكية، وإن اختلف عنها فى جعل رجال الأمن يمثلون الجهامة والصرامة، وجعلهم أيضاً بلا قلب ولا وجدان، مع أن التضحيات لا تتم فى واقع الأمر إلا من خلال القلب والوجدان.

تمنيت أن يتساءل أهل الفن عن السبب الحقيقى الذى يجعل "اللمبى" بطل المرحلة ومضحكها الأول؟

* * * *

كتب للمؤلف
الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض
١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته.
٢- تيسير علم المعاني .
٣- الأدب الإسلامي : الفكرة والتطبيق .
٤- محمد- صلى الله عليه وسلم –في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) .
٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية .
٦- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة).
٧ - تطور النثر العربي في العصر الحديث .
٨- مدرسة البيان في النثر الحديث .
٩- تطور الشعر العربي في العصر الحديث .
١٠ – المدخل إلى البلاغة النبوية .
ثانيا : كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ) :
١- الإخوان والنظام : برنامج الحزب المستحيل .
٢ - وجوه عربية وإسلامية .
٣ - الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) .

٤ - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة) .
٥ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة) .
٦ - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية).
٧ - في رياض النبوة (٣ أجزاء)
٨ - شعراء وقضايا : قراءة في الشعر العربي الحديث .

ثالثا : إسلاميات :

١ - مسلمون لا نخجل (٤ طبعات).
٢ - حراس العقيدة (٣ طبعات).
٣ - الحرب الصليبية العاشرة.
٤ - العودة إلى الينابيع .
٥ - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس .
٦ - ثورة المساجد .. حجارة من سجيل .
٧ - هتلر الشرق .
٨ - جاهلية صدام وزلزال الخليج .
٧ - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان) .
٨ - النظام العسكري في الجزائر .
٩ - حفنة سطور .. شهادة إسلامية .
١٠ - الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة .
١١ - الإسلام في مواجهة الاستئصال .
١٢ - تحرير الإسلام .
١٣ - دفاعا عن الإسلام والحرية .
١٤ - التنوير .. رؤية إسلامية .
١٥ - معركة الحجاب والصراع الحضاري .
١٦ - العصا الغليظة .
١٧ - واسلمي يا مصر.
١٨ - ثقافة التبعية : المنهج . الخصائص . التطبيقات .
١٩- انتصار الدم على السيف.
٢٠- التمرد الطائفي في مصر : أبعاده وتجلياته .
٢١ – العمامة والثقافة : دفاع الإسلام وهجوم العلمانية .
٢٢ – عباد الرحمن وعباد السلطان .
٢٣– الأقلية السعيدة : يوميات التمرد والتسامح !

رابعا : كتب أدبية ونقدية :

١- الغروب المستحيل (سيرة كاتب) .
٢- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) .
٣- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
٤- موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة) .

٥- حوار مع الرواية في مصر وسورية .
٦- لويس عوض الأسطورة والحقيقة .
٧- الوعي والغيبوبة : دراسات في الرواية المعاصرة .
٨- إنسانية الأدب الإسلامي .
٩- حصيرة الريف الواسعة .
١٠- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة .
١١– الحكاية كلها معاصرة(دراسات في الرواية) .

خامسا : إعلام :

١- الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية .

سادساً: كتب للأطفال :

١- واحد من سبعة .

سابعاً : كتب محققة :

١- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية .
٢- أحسن ما كتبت .

ثامنا – كتب معدة للنشر:

- الحداثة العربية : المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) .
- الإبادة والمقاومة : الشعب الفلسطيني لا يموت .
– خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة) .
- الحلم والدهشة (قراءة أدبية) .
– اللحم الإسلامي المستباح .
- حضرت التبعية .. وغابت الهوية .
- صالون الشعر والأدب (أعلاء وقضايا) .
- نداء الفطرة .
- اخلع إسلامك .. تعش آمنا ؟!
- ثقافة تزغيط البط !
- محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم !
- القيم الإسلامية في رسائل النور
- كهنة آمون !
- المدافعة والمداولة – قراءة في السنن والتحولات .

ثامنا : كتب إعادة طبع :

١ – التغريب وتجلياته (لويس عوض نموذجا) .
٢ – حوار مع الرواية في مصر وسورية .

٣ – حصيرة الريف الواسعة .
٤ ـ إنسانية الأدب الإسلامي .
٥ – الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
٦ـ أهل الفن وتجارة الغرائز .
٧ – معركة الحجاب والصراع الحضاري .
٨ـ التنوير رؤية إسلامية .

الفهـــرس

.[٣٩] .*

س

س

﴿س﴾. م م ﴿س﴾.

-ﷺ- -رضي الله عنه- -عليه السلام-

س س

س

الفصل ال

س

(١)

---

(٣٩)

* س